

مذكرات
على عزت ييجوفيتش
الرئيس السابق لجمهورية البوسنة والهرسك
رجل لكل العصور

ترجمة وإعداد
محمد يوسف علس
مستشار سابق بعثة اليونسكو



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٢١



کتاب المختار

كتاب المختار

أسسه حسين عاشور عام ١٩٧٩

ص ب ١٧٠٧ القاهرة - الرمز البريدي ١١٥١١

تليفاكس ٤٩٠٩٥٤١

محمول ٥٨٥٢٧٦٢ / ١٠ - ١٠ / ١٥٢٨٢٧٠

حقوق الطبع محفوظة للنشر

سيرته الذاتية

مقدمة

ظهر فى هذا العام ٢٠٠٣ م كتاب على عزت بيجوفيتش الذى يحمل عنوان : "أسئلة لا مفر منها - مذكرات من سيرة حياة".

كنت أتوقع صدور مثل هذا الكتاب خصوصا بعد أن اعتزل الرجل منصبه السياسى مختارا - كرئيس لجمهورية البوسنة والهرسك بعد أن انتخبه الشعب بالأغلبية الساحقة لفترتين رئاسيتين ، هذا الاعتزال الاختيارى فى حد ذاته ظاهرة سياسية فريدة فى بلاد المسلمين تستحق منا كثيرا من التأمل .
المهم أن الرجل اعتزل المنصب وأخلد إلى شئ من الهدوء والتأمل فى خبرات حياته ومسيرته السياسية وبالحياة من حياة حافلة بالأحداث الجسام ...!

قرأت كثيرا من السير الذاتية بأقلام كبار الشخصيات العالمية فأعجبت بجوانب منها وأنكرت جوانب أخرى .. وأكثر ما أنكرته هو محاولة تجميل تاريخ حياتهم بما ليس فيهم وتبرير قبح أعمالهم بمنطق معوج وغمط للحقائق لا ينهض أمام البحث والاستقصاء .

وما أريد أن أثبتته هنا هو أن السيرة الذاتية - على أى حال - تشف عن شخصية صاحبها الحقيقية سواء أراد هو ذلك أو لم يرد .. مثلاً أراد لورد أوين فى مذكراته (أوديسا البلقان) أن يبرر أخطائه الفاحشة فى محاولته تسوية الصراع اليوغسلافى فى البوسنة ، فبدا غاضباً كاذباً مزيفاً للحقيقة بل ومتناقضاً مع نفسه فى كتابات له سابقة عن حرب البوسنة وقد أوضحت ذلك فى مقال سابق فى مجلة المختار الإسلامى رداً على ما كتبه الأستاذ محمد حسنين هيكل فى هذا الموضوع وفى مذكرات هنرى كيسنجر رأيت متعالياً خبيثاً كارهاً وليس (صديقنا العزيز) كما كان يطلق عليه بعض قادتنا العرب سذاجة أو سياسة !..

ورأيت تشرشل فى مذكراته موضوعياً متوازناً مخلصاً لبلاده وتقاليدها الإمبريالية بلا مواربة ، ورأيت هلموت شميت موضوعياً وعلى شئ كثير من التواضع ، وتمنيت أن لو كان قادتنا السياسيون يقرءون مثل هذه المذكرات ليعرفوا ما يقال عنهم بعيداً عن الضجيج والتزييف الإعلامى ومقتضيات الدبلوماسية ...

ولا شك أننى خرجت من قراءة كل سيرة ذاتية - مهما
تفاوت نصيبها من الصدق والحقيقة - بشئ من الفائدة ،
فكرية كانت أو عملية ، ولكننى لم أستمتع بقراءة سيرة ذاتية
كما استمتعت بقراءة كتاب غاندى (البحث عن الحقيقة) ساتيا
جراهام ، قرأته فى أعقاب الهزيمة المروعة سنة ١٩٦٧
فانتشلتنى من قاع أزمة نفسية أصابتنى بسبب هذه الهزيمة التى
لم أفهم لها مبررا ورأيت فيها مؤشرا على مستقبل مأساوى
يترص بهذه الأمة ...

جذبنى إلى السيرة الذاتية للمهاتما غاندى أنها كانت
تتضح بالصدق والتواضع الإنسانى والزهد وعمق التجربة
الروحانية والتسامح الأخاذ ، وها أنذا - بعد ستة وثلاثين عاما
وفى ظروف مأساوية أخرى تحمل بالأمة - أقرأ سيرة ذاتية أخرى
تنشق من نفس الينبوع الإنسانى الخالد للمفكر الإسلامى المبدع
والقائد السياسى والروحى الملهم (على عزت بيجوفيتش)
الرئيس السابق لجمهورية البوسنة والهرسك ، الذى قاد شعبه
فى أحلك فترة من فترات تاريخه الحديث ، فأخرجه من الكارثة
التي حلت به بعد نضال شاق مرير ، فلما شعر أنه قد أدى
أمانته وأبلغ شعبه إلى مأمنه لم يبق فى منصبه ليستمتع

بشمرات جهاده ويركن إلى حياة الرفاهية والمتعة وإنما زهد في ذلك كله واستقال من منصبه ، وهو القائد الذي انتخبه شعبه بأغلبية ساحقة، شهد بها المجتمع الدولي ... هذا الموقف في حد ذاته يستحق منا أن نتوقف عنده طويلا لتأمل فيه ونستخلص منه العبر ، هذا الزهد في السلطان هو الذي يصنع العظماء وليس التشبث به حتى الموت ، يرفع الزهد أصحابه إلى ذرى رفيعة ويهبط التكالب بأصحابه إلى أعماق المجيم .

محمد يوسف عدس

مستشار سابق بهيئة اليونسكو

رأى على عزت فى مذكراته

يقول : (إنها شذرات لا تمثل حياتى كلها .. ذلك لأن أجزاء كاملة من حياتى إما أنى نسيت تفاصيلها وإما أنها تخصنى وحدى ولا تهم غيرى ، وما بقى من حياتى إنما هو سرد زمنى للأحداث أكثر من أن يشكل سيرة ذاتية ... أو قل إنها قصة الأحداث كما وقعت فى مجرى حياتى) .

هكذا يقدم لنا على عزت سيرته الذاتية ببساطة شديدة وتواضع يتجلى فى قوله : "لم آلف كتابة مذكرات من هذا النوع ولكنى عندما قرأت مذكرات تشرشل الشهيرة فهمت من كلام تشرشل نفسه أن الكاتب فى هذا المجال إنما يقصد إلى ربط الأحداث كما وقعت فى ترتيبها الزمنى بخيوط من خبرته الخاصة ، ومن ثم فالمذكرات تصور ذاتى للأحداث وليست تاريخاً" ، ثم يضيف فكرة أخرى مهمة فيقول : "لا يصح أن يكتب التاريخ أولئك الأشخاص الذين صنعوه أو كانوا جزءاً منه" .

تشكل رسائل على عزت وأحاديثه ومحاضراته ولقاءاته الصحفية خلال حرب البوسنة جزءاً كبيراً من الكتاب والدافع

إلى ذلك كما يقول : "تصورت أن نشر هذا كله أو بعض منه ربما يكون ضروريا لأنه يعبر عن انطباعاتى المباشرة عن الأحداث وتعليقاتى الفورية عليها .. واعتقدت أن هذا أكبر شهادة وأكثرها دلالة على هذه الأحداث كما أنها طريقة ناجحة لتجنب ذلك النوع من الإدراك المؤجل لطبيعة الأحداث ومغزاهام، فالإدراك المؤجل هو بالضرورة إدراك معدل .

هنا يتسق على عزت تماما مع نفسه ومنهجه .. فهو يتحدث عن انطباعاته الخاصة بإزاء الأحداث ولا يتحدث عن الحدث باردا مجردا ، فهو لا يكتب تاريخا ولا يصح فى منهجه أن يكتب التاريخ أولئك الذين صنعوه ، ولذلك فإنه يصف مجمل مذكراته بقوله : "إنها الحقيقة كما رأيته فى فترة بالغة الصعوبة من تاريخنا" .

يقع الكتاب فى خمسمائة وخمسين صفحة تحتوى على ثمانية فصول وملحقات ، وقد صدر الكتاب بعشر صفحات لخص فيها تاريخ البوسنة كما ورد فى كتاب المؤرخ والكاتب البريطانى (نويل مالكوم) بعنوان (تاريخ موجز للبوسنة والهرسك) ، وفى هذا تقدير عظيم لهذا المؤرخ الذى تميزت كتاباته بعمق النظرة والإنصاف .

الدراسة والحرب

فى يوغسلافيا الملكية

لا ينسب على عزت إلى نفسه بطولات أو إنجازات فذة أو عبقرية نادرة ظهرت ملامحها عليه مبكرا كما يزعم عادة أكثر كتاب السير الذاتية ، وإنما يصرح ببساطة شديدة أنه كان تلميذا متوسط الإنجاز فى المدرسة الابتدائية حتى أنه كان يحصل على درجات ضعيفة فى مادة التاريخ بالذات ... وكان يعتقد حينذاك أن السبب فى ذلك يرجع إلى مدرس التاريخ الصربى الذى كان يتحدث بلهجة عامية غريبة عن اللهجة البوسنوية ولأن هذا المدرس كثيرا ما كان يعرض بالتلاميذ المسلمين ويطلق عليهم نكات ساخرة ، يقول على عزت : "اعتقدت آنذاك أن هذا كان كافيا لى ألوم هذا المدرس الصربى على درجاتى الضعيفة فى التاريخ" .

التحق على عزت بالمدرسة الثانوية (جمنازيوم) بسرانيفو ، وكانت تتبع منهج المدارس الصارم فى عهد يوغسلافيا الملكية . وكان معظم مدرسيها من الصرب كالحال فى المدرسة الابتدائية ذاك لأن صرينة البوسنويين المسلمين كانت هدفا

تقليديا راسخا لتأكيد الهيمنة الصربية على جميع الشعوب والأعراق الأخرى في يوغسلافيا .

ربما كان هذا هو سر انصرافه الجزئي عن متابعة المناهج المقررة بنشاط أكبر ، واتجاهه إلى تعويض ذلك بقراءة الفلسفة التي كان يعشقها ، حتى أنه استطاع أن يستوعب الأعمال الفلسفية الأساسية في الفلسفة الأوروبية قبل أن يبلغ سن التاسعة عشرة ، يقول في هذا : "لم أكن في ذلك الوقت استعذب فكر الفيلسوف الألماني "هيجل" وإن كنت قد غيرت رأيي فيه فيما بعد ، أما الفلسفات التي تأثرت بها كثيرا فهي فلسفة "هنري برجسون" في (التطور الحي) وكتاب الفيلسوف الألماني "كانت" (نقد العقل الخالص) وكتاب من مجلدين للفيلسوف "شبنجلر" بعنوان (تدهور الغرب)" .

رغم انشغال على عزت بالفلسفة إلا أنه لم يقطع صلته بالمدرسة في أي وقت من الأوقات حتى تمكن من التخرج سنة ١٩٤٣ ، في ذلك الوقت كانت الحرب العالمية على أشدها مخلفة وراءها معارك ستالنجراد والعلمين ، وكان الحلفاء يستعدون لإنزال قواتهم في سبيل إيطاليا . وهو يذكرنا هنا بنقطتين هامتين في مجرى هذه الحرب الطاحنة : النقطة الأولى

تتعلق بالمجاعة الكبرى التى اجتاحت أوروبا سنة ١٩٤١م
ويعلق على هذه الواقعة بقوله : (كنا فى المنزل نشعر بالجوع
معظم الوقت لنقص السلع الغذائية فى الأسواق) .
أما النقطة الثانية فتتصل بالحرب فى يوغسلافيا حيث
يقول : "لقد اكتوت يوغسلافيا بنيران حريقين لأحرب واحدة ...
الحرب العالمية الثانية ، والحرب الأهلية التى نشبت بين
(الشيطنك) الصربيين الذين كانوا يدافعون عن الملكية
اليوغسلافية وبين (الأوستاشا) الكرواتيين الذين انحازوا إلى
الاحتلال النازى ... وفى نفس الوقت كان البارتيزان بقيادة
(جوزيب بروز تيتو) يحاربون القوات الألمانية وفق أجندة أخرى
هى الشيوعية .. كان المسلمون كالعادة هم الضحايا فى كل
صراع ينشب بين الصرب والكروات ، فاضطروا فى النهاية أن
يلتحقوا بالقتال دفاعا عن وجودهم بعد أن كثر فيهم القتل
والتدمير من كلا الجانبين" ،
كانت الاستاشا الكرواتية قد استولت على السلطة فى
يوغسلافيا تحت حماية القوات الألمانية الغازية ... وعلم على
عزت أنهم يبحثون عنه لتجنيدده فى الاستاشا الكرواتية فقد

كان الكروات شأنهم فى ذلك شأن الصرب يعتبرون المسلمين اليوشناق جزءاً منهم ، ولا يعترفون باستقلالية المسلمين عن الصرب أو الكروات .

ولأن على عزت كان كارهاا للعنصرية الصربية وللفاشية الكرواتية معا ولم يكن يتصور نفسه مقاتلاً تحت راية النازية أو الشيوعية ، لذلك هجر منزله فى سراييفو ولجأ إلى أقاربه فى مسقط رأسه الريفى ليختفى عندهم .

نسمات من السعادة

فى سراييفو

نادرة هى تلك الأيام التى شعر فيها على عزت بحياة آمنة هادئة فلم تكد حياته التى بلغت الثامنة والسبعين هذا العام (٢٠٠٣) تخلو من الحروب والصراعات والاستبداد والاعتقالات ... ولكنه يتذكر فترة وجيزة تقع بين عامى ١٩٣٢م و١٩٤١م استمتع فيها بطفولة هائلة سعيدة ... وهنا يحكى لنا عن انطباعاته الأولى مع جيران لهم من الصرب الأرثوذكس والكروات الكاثوليك الذين تعايشوا معا فى سلام ومودة ... ومن كلامه ندرك أن مقولة العداء التقليدى والصراع العرقى بين البشناق والكروات والصرب أو بين المسلمين والأرثوذكس والكاثوليك إنما هى خرافة محضة ، وعندما انطلق هذا الصراع كان دائما بفعل قوى خارجية لخدمة أهداف سياسية توسعية روح لها قادة عنصريون متطرفون أمثال سلوبودان ميلوسفيتش ، وتبعهم فى ذلك فئة من الكتاب والصحفيين الجهال أو المرتزقة ، وقد ابتلينا ببعضهم فى الإعلام العربى .

يقول على عزت :

"ورثنا عن جدى لأمى مزرعة فى قرية تسمى (أزيتش)
غير بعيدة من سراييفو ... وقد اشتملت المزرعة على منزل
ريفى جميل تحف به أشجار كبيرة عتيقة ... وبئر للماء من
الطراز الرومانى ... كنا نقضى العطلة الصيفية هناك مع أبى
وأمى قبل أن تتدهور صحة أبى .. حيث تولت خالتي
اصطحابى مع إخوتى إلى المزرعة .. وهناك قضيت أسعد أيام
حياتى".

يتابع على عزت ذكرياته وانطباعاته عن هذه الفترة
السعيدة فيقول :

"أزيتاشى قرية صغيرة اختلط فيها المسلمون والأرثوذكس
والكاثوليك فتعايشوا فى سلام .. وكان للكاثوليك فى القرية
كنيسة قديمة تقام فى ساحتها الخارجية احتفالات يحضرها
جميع السكان فى ليالى الصيف الجميلة وقد سادت بين الجميع
مشاعر ود واحترام متبادلة .. كانت هذه الصورة ترد على
خاطرى دائما وأنا أتأمل فى أحداث الحرب الدامية التى
اجتاحت البوسنة فى التسعينيات".
من الطبيعى أن يتحسر على عزت على هذه الأيام الخوالى

وهو يرى شعبه يتعرض لأبشع عمليات تطهير عرقي شهدتها أوروبا في العصر الحديث .. ولا تزال فرق البحث عن الضحايا حتى اليوم تكشف عن مزيد من المقابر الجماعية وتستخرج أشلاء الضحايا ممزقة مبعثرة لأطفال ونساء أبرياء .. وجثث لرجال مقيدين في الأغلال دفنوا أحياء تحت وابل من الأنقاض .. قارن بين هذه الصورة وبين الصورة التي عرضها لنا على عزت في ذكريات طفولته يقول :

"كان لنا جار صربي يسمى (ريستو بيربان) .. اعتاد أن يحيي كل امرأة مسلمة وهي تجلس في حديقة منزلها الأمامية فكان يشيح بوجهه إلى الناحية الأخرى غضا للبصر واحتراما للتقاليد الإسلامية ... كان هذا ما يجري بين عامة البوسنيين في كل مكان أما ما يحدث في الأوساط الحكومية فشئ آخر".

الهيمنة الصربية

أشار على عزت آنفا إلى المحاولة الدائبة من جانب المؤسسات الرسمية لصربنة المسلمين والقوميات الأخرى في البوسنة ، وضرب لنا مثلا بما كان يجرى في التعليم المدرسى ، وهو يؤكد أن الهيمنة الصربية كانت تقليدا جاريا ومتعمدا في يوغسلافيا الملكية ..

ويذكر في هذا المجال أنه فرض على أسرته أن ترفع العلم الأسود على منزلهم لمدة ستة أشهر بعد مقتل الملك ألكسندر ، فلما انتهى العهد الملكي في يوغسلافيا وتحولت يوغسلافيا إلى دولة شيوعية بقيت الهيمنة الصربية سائدة في كل الإدارات والهيئات والمؤسسات الرسمية .

يقول على عزت :

"هذا الإصرار على سيادة العنصر الصربي أخل بالتوازن القومي وغيب المشاركة الحقيقية للشعوب اليوغسلافية وأدى في النهاية إلى ثورة السلوفيين والكروات وانفصالهما ، وما كانت الحروب التي شنتها صربيا بعد ذلك إلا رغبة في

استعادة السيطرة وبناء صربيا الكبرى لا يوغسلافيا الحقيقية ،
هذا الموقف العنصري التسلطي هو المسئول عن تمزيق
يوغسلافيا وانهارها التام في النهاية .

التشكيل المبكر

لوجدان على عزت

كان جد على عزت ضابطا فى الجيش العثمانى تزوج وهو يعمل فى اسطنبول من فتاة تركية تسمى صديقة ، كما كان أبوه محاربا فى الجبهة الإيطالية فى الحرب العالمية الأولى حيث أصيب بجرح بالغ تحول مع الوقت إلى شبه شلل جعله حبس الفراش فترات طويلة ، وقد تأثرت طفولة الصبى على عزت بمرض أبيه خصوصا خلال السنوات الاثنتى عشرة الأخيرة من عمره .

كانت أسرة أبيه على درجة كبيرة من الثراء وكان أبوه نفسه يملك تجارة واسعة فى بلدتهم الصغيرة المسماة (بوسانسكى شاميتس) ولكن هذه التجارة تبددت فى ظروف غامضة ربما بسبب تقاعد أبيه .

مما يتذكره على عزت فى طفولته المبكرة عن تأثير أبيه فى تشكيل حياته الفكرية ، أنه عندما انتقلت الأسرة إلى سراييفو لإلحاق أبنائها وبناتها بالمدارس كانت الأسرة محاطة هناك بأهل أمه وأقاربها ، وقد لاحظ أنهم جميعا يحترمون أباه

ويقدرّون حكمته ويلجئون إليه لفض المنازعات العائلية والزواجية ، وكانت قراراته تحمل على محمل الجد والتقدير وكان الجميع يثنون على حكمته وعدله ، ومن ثم امتلأ قلبه بالاعتزاز والفخر لمكانة أبيه ... ولكن حبه الأكبر اختص به أمه ، فقد كانت رقيقة عطوفاً وعلى جانب عظيم من التدبّر والتقى وهو يعتقد أن جانباً كبيراً من التزامه الديني والأخلاقي جاء من ناحيتها ، حيث يقول : كانت أُمّي تحرص على قيام الليل وقراءة القرآن حتى يحين موعد صلاة الفجر فتوقظني لنذهب معا إلى صلاة الجماعة في المسجد القريب من بيتنا ... كنت في ذلك الوقت بين السنة الثانية عشرة والرابعة عشرة من عمري ، ولم يكن من السهل علي أن أغادر دُفئ الفراش في هذا الوقت المبكر فكنت أقاوم في بادئ الأمر .. ولكني كنت أشعر بعد العودة من المسجد بارتياح كبير وسعادة من هذه الخبرة المثيرة خصوصا في فصل الربيع ، حيث تكون الشمس قد أشرقت وملأت المكان بأشعتها الدافئة ... ولما تزل آيات القرآن حلوة ندية تترقرق في مسامعي ، فقد اعتاد الإمام الشيخ قراءة سورة الرحمن كاملة في الركعة الثانية بصوته العذب وكان

شخصية محبوبة من جميع الناس .. كنت أعود من المسجد
سعيدا منشراح الصدر .. وقد استقر هذا الانطباع فى أعماق
نفسى واضحا مشرقا فى وسط ضباب كثيف من الخيرات
الأليمة التى أحاطت بحياتى عبر السنين .

المراهقة

وغواية الفكر الشيوعى

(عندما بلغت السنة الخامسة عشرة تحررت من سيطرة الأبوين وبدأت أشعر أن لى كيانا خاصا وحياة خاصة بى .. فى هذه الفترة من المراهقة المبكرة اهتز إيمانى بأشياء كثيرة ووجدت نفسى مع مجموعة من رفقاء المدرسة نبحث فيما حولنا عن آفاق جديدة تشبع تطلعاتنا وأشواقنا المنبثقة ، فقرأنا كثيرا من كتب الشيوعيين والملاحدة ، وكانت يوغسلافيا فى ذلك الوقت تغص بالنشطاء الشيوعيين .. وكانت الدعاية الشيوعية تتحرك بقوة وسرية بين الشباب فاستطعت أن أحصل على بعض كتبهم ومنشوراتهم .. وأدركت من قراءتها أنهم لا يفهمون الديمقراطية ولا يبالون بها ... كانوا ضد الفاشية الشمولية ، ولكنهم بفكرهم كانوا يمثلون أيديولوجية شمولية أيضا وإن كانت مضادة للفاشية ، بمعنى آخر كانت شمولية حمراء فى مواجهة شمولية سوداء .. كان الشيوعيون أقوياء فى المدرسة الثانوية وكان هناك مدرسون يبخون الفكر الشيوعى سرا بين التلاميذ وبدأت أنشغل بفكرة العدالة الاجتماعية ، والتأمل فى أفكار الشيوعيين عن الله ، فوجدت أن الله فى

الدعاية الشيوعية يقف إلى جانب الظلم الاجتماعى ، ومن ثم انبثقت مقولة أن الدين أفيون الشعوب لأنه يعدمهم بالنعيم فى حياة أخرى مشكوك فيها لكى يكفوا عن النضال فى الحياة الدنيا الواقعية ، (كانت القوامة قوية وكان من السهل على صبي قليل الخبرة أن يقع فيها ، ولكن عشق على عزت للحرية والديمقراطية والمجدور الدينية التى انغرس فى فطرته مبكرا عصمته من الانزلاق .

يقول فى ذلك :

"انتصرت الفطرة فى النهاية فقد كنت أؤمن أن الرسالة الأساسية للدين هى المسئولة .. وفى ذلك يتساوى الملوك والأباطرة مع عامة البشر ، فإن لم يكونوا يخشون القانون والشرطة لأنهم يملكون القانون والشرطة فى أيديهم ، إلا أن مسئوليتهم أعظم وأخطر أمام الله ، فهم سيألون عن أعمالهم وما ارتكبه من مظالم يوم القيامة ولا مفر هنالك من الحساب والعقاب ، وتلك وظيفة الضمير الدينى ... وقد بدت لى فكرة أن الكون بلا إله هو كون لا معنى له .. ولذلك لم يستمر ترددى وشكوكى طويلا فقد برئت منها فى غضون عام أو عامين لأعود مرة أخرى إلى ينبع الإيمان الصافى الذى يغمر قلبى وعقلى .

العمل الإسلامى وتجربة السجن

بدأ على عزت بيجوفيتش يتجه إلى العمل الإسلامى عندما تعرف على مجموعة من الشباب فى جامعة زغرب وجامعة بلجراد كانوا قد لخصوا عقيدتهم فى تصور عن الإسلام رأى أنه يتلائم مع أفكاره الخاصة ، حيث اتفق الجميع على أن الإسلام ينطوى على حقيقتين متكاملتين : عبادة ظاهرة برانية ومحتوى روحى جوفى لا ينفصمان ، ولكن المؤسسة الدينية الرسمية حصرت نفسها فى الشكل البرانى وأغفلت الجانب الروحى ، مما أدى إلى خواء صرف الشباب عن هذه المؤسسة .. لذلك اتفق الطلاب على إنشاء جمعية لهم باسم (جمعية الشبان المسلمين) وأرادوا تسجيلها وفقا لقوانين الجمعيات الذى كان معمولاً به فى ذلك الوقت ، وعقد الطلاب جمعية عامة تأسيسية تمخض عنها انتخاب مجلس إدارة ، لم يشأ على عزت بيجوفيتش أن يذكر أنه كان أحد أعضاء هذا المجلس ، حدث فى ذلك الوقت أن غزت القوات الألمانية يوغسلافيا ، وكان هذا فى إبريل ١٩٤١ فلم يتم تسجيل الجمعية رسمياً بعد ذلك أبداً نظرا لتلاحق الأحداث المعاكسة .

المعالم الأساسية فى فكر هذه الجمعية كما يحددها على عزت هى : الإسلام مع بعض عناصر ذات اتجاه معارض

للفاشية والفكر الشيوعي الإلحادى ، بهذا تحدد محور اهتمام حركة الشبان المسلمين ومسارها .
هذا الموقف لم يأت من فراغ وإنما جاء كرد فعل على المناخ السياسى الذى كان سائدا فى أوروبا فى ذلك الوقت ... يقول :
(كان يسيطر على النظام العالمى حينذاك فاشية هتلر وشيوعية ستالين ، وكل منهما يريد تغيير العالم وصياغته وفق رؤيته الأيديولوجية الخاصة ... ولم يكن هذا أكثر من وهم سرعان ما تكفل الزمن بعلاجه ، فقد تلاشت الفاشية بسقوط هتلر ، ثم انهارت الشيوعية بعد ذلك وبقي العالم القديم ليغير نفسه بنفسه) .

ملاحج أخرى

لدعوة الشبان المسلمين

عندما يصف لنا على عزت أوضاع العالم الإسلامى فى تلك الفترة ندرك من وصفه أن حركته كانت على بيئة ودراية واسعة بأحوال المسلمين المتردية فى العالم حيث يقول : (عندما ظهرت حركة الشبان المسلمين فى أوائل الأربعينيات كان العالم الإسلامى فى حالة بانسة ، فأكثر بلاد المسلمين كانت ترزح تحت الاحتلال العسكرى والاقتصادى .. وكنا نشعر أن الإسلام يستحق وضعاً أفضل مما هو عليه ، وأن الحاجة ماسة إلى إبراز جوهره الصافى وتمكينه من الانعتاق والانطلاق فى عالم الإصلاح والتقدم) .

انتشرت دعوة الشبان المسلمين فى أوساط طلاب الجامعات والمدارس الثانوية وأصبح لها مؤيدون بالئات فى كل مدينة وبلدة فى أنحاء البوسنة والهرسك ، وكان هناك شبه اتفاق غير مكتوب بينهم وبين السلطات الحاكمة فيما بين سنتى ١٩٤١ و١٩٤٥ : (ألا يكون هناك صدام أو تحرش ، برغم أنه كان من

الواضح أن هذه الجماعة كانت تشكل المعارضة الحقيقية للنظام القائم . وقد استمر نشاط الجمعية على هذا المتوال بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، ولكن الظروف السياسية كانت قد تغيرت كثيرا ، فقد انتهى عصر يوغوسلافيا الملكية وبدأ عهد يوغوسلافيا الشيوعية .

وفى هذا يقول على عزت : حاول الشيوعيون فى بادئ الأمر استمالتنا إلى فكرهم مع تشبيط نشاطنا الفكرى والإعلامى فلما فشلوا شرعوا يلقون لنا التهم ويزجون بنا فى السجون ، دخل الشيوعيون سراييفو فى إبريل ١٩٤٥ وحكموا البيوسنة والهرسك ، وبدأت بذلك فترة من الصراع والمعاناة استمرت ٤٥ عاما .

بداية الصدام مع النظام الشيوعي

فى خريف سنة ١٩٤٥ ظهرت محاولات مكثفة لاحتواء جمعية علماء المسلمين (بريبورد) وإخضاعها للتوجيه الشيوعي .. كان الهجوم عليها وعلى قياداتها وعلى الإسلام نفسه هجوما عنيفا ظالما به حشد من الافتراءات والأكاذيب وكثير من الجهل بالإسلام .

يقول على عزت : (كان لابد لنا أن ننهض للدفاع عن الجمعية المظلومة وعن الإسلام المفترى عليه ، ونرد على مزاعم الشيوعيين بالحجج والبراهين ، كان خطابنا ناريا ضد هذا الاتجاه الإلحادى المسعور فصفت لنا الجماهير كثيرا ورحبوا بنا وهتفوا لنا فكان رد فعل الشيوعيين علينا فوريا حيث قام رجال الأمن بالقاء القبض علينا ونحن على منصة الخطابة).

لقد أفرج عن الخطباء فى اليوم التالى ولكن السلطات الشيوعية اعتبرت هذا الدفاع عن الإسلام تمردا على النظام ، فوضعتهم تحت الملاحظة والرقابة .. حيث كانوا يدبرون للجمعية ما هو أخطر .. فبعد أشهر قليلة وعلى وجه التحديد

فى مارس ١٩٤٦ ألقى القبض على (على عزت) مع أربعة عشر من زملائه وقُدموا لمحاكمة صورية وحُكم عليهم لمدة ثلاث سنوات مع الأشغال الشاقة .

ولكن برغم الأحكام الجائرة استمرت جمعية الشبان المسلمين تمارس نشاطها ... بل اتسعت رقعتها فى المجتمع البشناقى فقامت السلطات بإلقاء القبض على مجموعة أخرى سنة ١٩٤٧ تم تلتها مجموعة ثالثة سنة ١٩٤٨ .

ثم أرادت السلطات الشيوعية أن تقوم بعملية كبرى شاملة لسحق الجماعة واجتثاثها من الجذور .. كان هذا سنة ١٩٤٩م عام (الكومنفورم) الذى هاجم فيه ستالين يوغوسلافيا هجوما عنيفا واتهمها بالتراخى مع الجماعات المضادة للثورة الشيوعية .. فأراد الشيوعيون أن يشبثوا العكس ، ومن ثم وسعوا دائرة الاعتقالات إلى أقصى مدى ، مما أثار الذعر فى البوسنة والهرسك كلها .

يقول على عزت : حُكم على بعض زملائنا بالإعدام وكان أكبرهم سنا هو حسن بيبر (٢٧سنة) وأعدم نصرت الذى كان أصغرنا سنا حيث لم يكن قد بلغ العشرين بعد .. وكان من بين التهم التى وجهت إلينا تهمة الإرهاب وهو أمر لم يحدث

مطلقاً لأن أحداً منا لم يمارس أى لون من ألوان العنف ، ولا حتى قمنا بمظاهرة ... فقد انحصرت أنشطتنا فى الكتابة والتواصل بالخطابات والاجتماعات ، يعنى كانت كلها مقاومة شفهية ونفسية للفكر الشيوعى) .

تجربة السجن الأولى

قضى على عزت فى السجن ثلاث سنوات من مارس ١٩٤٦ إلى مارس ١٩٤٩ م ، ولأنه رجل صادق ومنصف ولا يحب المبالغات لم يزعم لنفسه بطولات لم يفعلها ولا نسب عيوباً للسجن أكثر مما فيه حيث يقول : (فيما عدا أننى كنت أشعر بالجوع .. لقلة الطعام إلا أننى لم أتعرض لأى نوع آخر من التعذيب البدنى سوى التجويع ..) ويصف لنا سجنه فيقول: (وضعت فى أحد السجون العسكرية فى مكان واحد مع عتاة المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام .. وللبالغ دهشتى التقيت بنماذج إنسانية مثيرة للعجب قذف بها الحظ السيئ هذا المصير) .. وفى هذا المجال يقص علينا حكاية شاب تورط فى القتل دفاعاً عن أبيه .. فقد جاءه من يخبره بأن مجموعة من البلطجية قد أحاطوا بأبيه وهو فى المطعم يتناول عشاءه فأسرع إليه ليراه يحاول حماية نفسه تحت المائدة وقد تجمع عليه بعض البلطجية يركلونه بأقدامهم ويضربونه بالمقاعد فاستشاط الابن غضباً ، وأخرج من جيبه مطواة غيبها فى

صدر أحدهم فانفضوا عنه) .

يقول على عزت معلقا على هذا الحادث : (لو كنت مكانه ورأيت أبى فى هذا الوضع المهين وحياته معرضة لخطر الموت ربما كنت سأفعل مثلما فعل هذا الابن المسكين) .

بهذا التعليق يحاول على عزت الإنسان أن يلفت نظرنا ألا نتسرع فى الحكم على الناس أو أن ننظر إليهم -كما تعودنا- باحتقار واشمئزاز إذا سمعنا أن شخصا حكمت عليه السلطات بالسجن أو حتى قامت بإعدامه اعتقاداً منا بأنه لابد أن يكون مجرماً ، وأنه يستحق ما أصابه ، فكم فى السجن من مظلومين !!!..

رب ضارة نافعة

لم يخل السجن والأشغال الشاقة من بعض الفوائد الفكرية والعملية بالنسبة لعلی عزت وفي ذلك يقول : (أرسلت إلى موقع بناء أسهمت فيه بعمل يدي .. وأصبح هذا المبنى مركزا للشرطة السرية .. ثم عملت بسراییفو فی تشييد مبنى آخر أصبح مقرا للجنة المركزية للحزب الشيوعي) فكثير من أعمال الطوب والمحارة والتسليح فی هذا المبنى من عمل يدي) وكمسلم شديد الإيمان بالله وقدره يستخلص بعض العبر حيث يقول (لا يستطيع الإنسان فی حقيقة الأمر أن يعلم على وجه اليقين ما هو خير وما هو شر .. فقد تحول شر السجن فی حالتی إلى خير لم أحسب له حسابا ولا مر بخاطري .. فلولا أنني كنت مسجوناً سنة ١٩٤٦ ، وهو أمراً اعتبرته أسرتی مصيبة كبيرة حلت بهم ، لولا هذا لما نجوت من القتل الذي كان من نصيب زميلي الشهيد (خالد كابتاز) الذي حل مكاني فی قيادة الجمعية بعد القبض على) .. فقد حكم عليه بالإعدام رميا بالرصاص فی أكتوبر ١٩٤٩م .

ثم يحكي قصة أخرى فی نفس السياق نفهم منها أن

السلطات الشيوعية أرادت أن تحرمه من زيارة أسرته نكاية به
وبهم ، فأرسلته إلى سجن على الحدود المجرية .. وبالصدفة
المحضنة يجد أن هذا السجن كان عبارة عن مزرعة كبيرة بها
كميات هائلة من البطاطس ، فكان هو وزملاؤه فى السجن
يجمعونها من الأرض ويشوونها على النار ثم يلتهمونها كغذاء
يومي .. وبذلك لم يعد للجوع أثر فى حياته .. ويقول أيضا :
(عملت هناك قاطعا للأخشاب فأصبحت ماهرا فى هذه الصنعة
.. وكلما فكرت فى الأمر قلت لنفسى إنها صنعة مريحة إذا
اضطرت إلى مواولتها فى المستقبل لكسب عيشى ، ويستطرد
فيقول : (عندما حان موعد الإفراج عنى بانتهاء مدة العقوبة
كنت قد بلغت الرابعة والعشرين .. خرجت بكامل صحتى فلما
رأنى أهلى بكوا فرحا لأنهم لم يكونوا يتوقعون أن يجدونى
بصحة جيدة) .

الزواج ومعاودة النشاط

لم يمكث على عزت إلا قليلا بعد الإفراج عنه حتى تزوج من فتاة كان يعرفها منذ صباه ولم تنقطع صلتهم رغم الأحداث والسجن الذى ابتلى به ، إنها زوجته السيدة خالدة التى صاحبته طوال حياته فاحتملتها بحلوها ومرها وساندته فى مسيرته النضالية بالحب والصبر .

وأنجبت له بنتين وولداً ، أما الولد فهو بكر وأما البنات فهما ليلي وسابينا ، أنجبتا بدورهما - بعد الزواج - خمسة أحفاد كلهم بنات ، يقول على عزت :كنت دائماً محاطا بالنساء فى داخل الأسرة .. وقد وجدت أنهن يعانين من أمور كثيرة كان يمكن تجنبها ، ولذلك اكتسبت الرغبة بل الاصرار على إنصاف النساء فى مستقبل حياتى ... كانت أول حفيذة لى هى سلمى التى ولدت منذ أربعة وعشرين عاماً مضت ... وقد استولت هذه المخلوقة الصغيرة -حينذاك- على أعماق مشاعرى بشكل قد لا يتصوره كثير من الناس).

بعد خروجه من السجن فورا عاود نشاطه فى جمعية الشبان المسلمين المحظورة ...) وكانت مهمتى الرئيسية كتابة بعض المقالات لمجلة اسمها مجاهد) كانت توزع سرا ... لم ينعم بصحية صديقه (حسن بيبر) سوى أربعين يوما حيث ألقى القبض عليه سنة ١٩٤٩ وتعرض لضغوط كثيرة وتعذيب شديد ليعترف بأننى عدت للالتحاق بالجمعية ، ولكنه رفض بإصرار ولولا ذلك لعدت إلى السجن مرة أخرى بحكم طويل الأمد مع الأشغال الشاقة .

حوكم حسن بيبر وقضى عليه بالأعدام رميا بالرصاص . وتلا ذلك عمليات اعتقال واسعة ودهم للمنازل والاستيلاء على أوراق ومستندات الجمعية كلها .. وتم تدمير الجمعية تدميرا كاملا .. وأودع قادة الجمعية فى أنحاء البلاد بالسجون وتبعثر الباقي أو لجأ إلى الاختفاء .

ربما كان الأصدقاء يلتقون مع الاحتياط والحذر .. وقد يتحادثون ولكن بعيدا عن أعين رجال الشرطة السرية .

سراييفو

تحت النظام الشيوعي

بعد خروجه من السجن هاله أن يرى سراييفو- بعد ثلاثة أعوام فقط من الحكم الشيوعي - في حالة بائسة ، ولم تكن بقية البوسنة والمهرسك أسعد حالا من سراييفو .

يقول على عزت : (أعطاني أحد الزملاء بالسجن رسالة إلى زوجته في سراييفو وكانت تملك محلا لبيع (الحضراوات)، وعندما وصلت إلى هناك وقفت أنظر حولي فلم أجد في المحل شيئا يذكر للبيع سوى بعض حزم من الفجل ... كان الجو شديد البرودة ورأيت المرأة تتلفع ببطانية حيث لا يوجد أى مصدر آخر للتدفئة .. سألتها ماذا تبيعين ؟ .

فأشارت بعينها قائلة : ما تراه أمامك !.. أحيانا يكون عندنا بعض البطاطس ، وعندما توجد يتجمع الناس أمامنا في طابور طويل لشرائها) .. يضيف على عزت قائلا : (عموما لم يكن يوجد في المحلات الأخرى بسراييفو سوى بعض الزيت والدقيق والسكر وقليل من الأقمشة .. وكلها تباع بكبونات .. وفي هذا الحال يتساوى عامة الشعب .. ولكن هناك فئة

قليلة متميزة خصص لها منافذ أخرى للبيع وتسمى (المحلات
الوزارية) وهي على ثلاث درجات متفاوتة ، أعلاها رقم (١)
وهذه مخصصة لكبار الأتباع من رجال القوات المسلحة وكبار
السياسيين ، فى هذا النوع الراقى من المنافذ يوجد كل شئ من
اللبن الأمريكى إلى أفخر أنواع الشيكولاتة .. لقد اتبعت
يوغسلافيا النموذج الروسى .. ولا عجب ففى بلاد الاتحاد
السوفييتى وتوابعه حيث الاشتراكية الحمراء ، كان هناك احتكار
رهيب من قبل رجال الحزب الشيوعى ورموز السلطة لكل شئ
بما فى ذلك أعظم المراكز أهمية فى الاقتصاد والسياسة
والثقافة .. وهى مناصب يمكن اكتسابها أو فقدها والحرمان
منها بتأشيرة من اللجنة المركزية للحزب ... وكانت الامتيازات
المرتبطة بهذه المراكز تشتمل على المرتبات العالية والكبائن
الفاخرة المنفصلة فى القطارات ، ومدارس خاصة ومراكز خاصة
للعلاج ذات مستوى رفيع محظورة على غير الفئات المتميزة ..
وفى كتاب بعنوان (عدم المساواة الاشتراكية فى يوغسلافيا)
وصفت (إيفا بركوفيتش) نظاما مثل هذا النظام : مرتبات
فيلات وشقق وسيارات ومصايف مدعمة .. إلخ .

وهي امتيازات تمتد من المستوى الفيدرالى إلى مستوى الجمهوريات نزولا إلى مستوى المحليات ... وكان الحديث عن هذه الامتيازات فى الشارع أو فى الحزب من الأمور المحرمة .. يوصف مرتكبيها بأنه ضد الاشتراكية وضد الدولة ! ...

فى الوقت الذى كانت فيه محلات سراييفو فارغة من السلع كانت السجون ممتلئة بالمعتقلين ، وعندما امتلأت السجون التى خلفتها يوغسلافيا الملكية والأستاشا أثناء الحرب العالمية بدأ الشيوعيون يبنون سجوناً جديدة .. وظل الحال على هذا النحو من التوسع فى السجون والمزيد من الاعتقالات على أشده فى عهد قائد الشرطة وساعد تيتو الأيمن الطاغية (ألكسندر رانتوفيتش) .. عزله تيتو من منصبه سنة ١٩٦٦م ولكن بدون تحسن يذكر فى الأمور حتى سنة ١٩٧٥م أى بعد ثلاثين عاماً من الحكم الشيوعى ، بدأت الأوضاع تتحسن قليلاً وبدأ الناس يتنفسون شيئاً من نسمات الحرية ، وكان هذا بضمن باهظ بلغ عشرين بليون دولار من الديون الخارجية التى جعلت يوغسلافيا تتعرض لمزيد من الضغوط الخارجية .

انطلاق العنصرية

الصربية بعد موت تيتو

مات تيتو سنة ١٩٨٠ وبدأ عهد جديد فى يوغسلافيا
ظلت فيه الهياكل السياسية والاقتصادية تتخذ نفس الأسماء
الاشتراكية القديمة ولكن عوامل التآكل والتحلل كانت ماضية
فيها بلا هوادة ، فقد كان زوال عهد تيتو بمثابة كشف الغطاء
عن القومية الصربية الكامنة التى شرعت تتهيباً لورثة
يوغسلافيا وكان أول ضحاياها تيتو نفسه ، ففى عقد
الثمانينيات انهالت عليه الاتهامات التى اعتبرت إنجازات
حياته كلها أخطاء فاحشة : سعيه لصداقة الدول العربية
والإسلامية كان خطأ لأنها بلاد متخلفة معادية للتقدم ،
وإصلاحاته الدستورية سنة ١٩٧٥ م التى أعطت كوسوفا كيانا
سياسيا مكافئا لمستوى الجمهوريات اليوغوسلافية الأخرى ،
وسماحه ببناء مسجد للمسلمين فى بلجراد وإنشاء معهد
للدراسات الإسلامية فى سراييفو .. كل ذلك موضع هجوم
شرس من قبل الكتاب الصرب القوميين ، الذين أبدوا عدا
سافراً للإسلام والمسلمين فاق كل هجوم سبق به الشيوعيون فى

بداية حكمهم سنة ١٩٤٥م.

وقد تأكدت النزعة العنصرية الاستثنائية ضد المسلمين
فيما سمي بالتطهير العنصري خلال التسعينيات .. في
البوسنة أولا ثم في كوسوفا فانهارت دولة يوغسلافيا ولم يبق
منها سوى الاسم .

سجناء الرأى ومحتتهم الثانية

كانت محنة على عزت بيجوفيتش فى هذا المناخ القومى
العنصرى الجديد أشد وأنكى فقد ألقى عليه القبض سنة
١٩٨٣ ضمن مجموعة من المثقفين البشناق المسلمين بتهمة
الثورة المضادة ، وكانت وثيقة الاتهام الوحيدة التى قدمها
الادعاء فى محكمة سرايفو هى كتاب على عزت (الإعلان
الإسلامى) الذى قمنا بترجمته إلى العربية فيما بعد .

كانت قضية ملفقة من أولها إلى آخرها .. جئ فيها
بشهود زور تحت التهديد الأمنى .. وكانت المحاكمة مهزلة
كبيرة ، ورغم ذلك حكمت المحكمة على المتهمين بأحكام
متباينة كان نصيب على عزت منها أربعة عشر عاما من
السجن مع الأشغال الشاقة .. لم يكن بالكتاب المذكور إشارة
واحدة إلى يوغوسلافيا أو البوسنة وإنما هو معنى بشتون عامة
فى الفكر الإسلامى والبلاد الإسلامية خارج أوروبا .. بل
يحتوى على كثير من النقد للمجتمعات المسلمة ويقدم

اقتراحات بحلول لمشكلاتها الأساسية .. ومع ذلك اعتبرته المحكمة تحريضا ضد الدولة ومؤامرة لقلب نظام الحكم فيها .

لقد دافع على عزت عن نفسه وزملائه فى هذه القضية دفاعا منطقيا رائعا ، فند فيه أدلة الادعاء وكشف عما فيها من افتعال وجهل وما تنطوى عليه من مخالفات صريحة للقانون والدستور .. ولكن هيهات !.. فالأحكام كانت مُعدة سلفا حتى قبل أن تبدأ المحاكمة وكان الهدف منها هو التخلص من النخبة المسلمة من المثقفين والمفكرين ، والقضاء على كل أثر للفكر الإسلامى فى البوسنة.

والحقيقة أن ما جرى فى هذه المحاكمة من تناقضات ومساخر كما يرونها على عزت فى مذكراته يقدم لنا نموذجا من نماذج المحاكمات التى نشهدها هذا الزمن فى أكثر بلاد العالم الثالث استبدادا وتخلفا ، لذلك تحتاج منا محاكمة سراييفو إلى وقفة تأمل ...

محاكمة سراييفو
وتجربة السجن الثانية

لا أدري لم أُلح على ذاكرتى وأنا أكتب هذه الحلقة من سيرة على عزت بيغوفيتش ما درستة -بانبيهار شديد- منذ خمسين عاما عن الفيلسوف الإغريقى سقراط ونهايته المأساوية فى السجن ؟.. ربما كان السبب هو تشابه فى بعض الملامح الشخصية المشتركة بين الرجلين ، فقد كان سقراط -مثله مثل على عزت- من أشد المفكرين دفاعا عن الحق والعدل والقيم الأخلاقية والحرية الإنسانية ، وكان سقراط مثل على عزت فى تصديه للانتهازية والسوفسطائية التى سادت المجتمع اليونانى فى زمنه ، هذه السوفسطائية التى أسقطت معايير الحق والعدل وأخضعتها للهوى الشخصى والمصالح الفردية ، ومكنت للسفهاء والجهال أن يستولوا على مقاليد السلطة والإدارة وأن يفسدوا القضاء ، قدم السوفسطائيون سقراط إلى المحاكمة بتهمة إفساد الشباب.

وكل ما كان يفعله سقراط هو أنه دأب على محاورة الشباب لتصحيح مفاهيمهم عن الحق والعدل والحرية فاجتذبت طريقتة فى الحوار جمهورا من الشباب أصبح يشكل فى نظر الساسة معارضة خطيرة لفلسفتهم الانتهازية ومحاولة لزعة

سلطانهم فى المجتمع .

نصحه بعض أصدقائه أن يستعطف المحكمة لتخفيف الحكم عليه أو العفو عنه، وقد كان هذا أسلوبا شائعا ومثمرا فى ذلك الزمن ، ولكنه بل إنه لم يحاول الدفاع عن نفسه وإنما تصدى للقضاة متحديا لهم حيث قال : (لو أنصفتكم حقا لجعلتكم مكانكم فى مقعد القضاء ولنزلتكم أنتم مكانى هنا فى قفص الاتهام لأحاسبكم على جرائمكم ضد الحق والعدل وضد المواطنين الأبرياء .

وعندما أدخل سقراط السجن تهيئا لتنفيذ حكم الإعدام فيه دبر تلاميذه له فرصة للهرب من سجنه ولكنه أبى مرة أخرى أن يستجيب لرجائهم مفضلا مواجهة الموت بشجاعة على الفرار الدليل .

الالتهام بالتآمر لقلب نظام الحكم

فى سنة ١٩٨٣ اعتقل على عزت بيجوفيتش مع ثلاثة عشر من زملائه قادة الفكر والمثقفين الإسلاميين ، وكانت تهمتهم هى القيام بثورة مضادة والتآمر ضد نظام الحكم وانفرد على عزت بتهمة التمهيد لقلب نظام الحكم وإنشاء دولة مقتصرة على المسلمين فى البوسنة ، بمعنى إخلاء البوسنة والهرسك من غير المسلمين عن طريق التصفية أو التطهير العرقى .

لم يكن هناك أسلحة ولا مليشيات مدرية ولا مظاهرات ولا منشورات ولا أجندة اجتماعات سرية ولا حتى ورقة واحدة مكتوبة ... ولكن هل يحتاج أى نظام دكتاتورى مستبد إلى شئ من هذا المبرر اعتقال مواطنين أبرياء وتقديمهم إلى المحاكمة بأى تهمة ملفقة؟! ..

وهل يحتاج مثل هذا النظام إلى شهود حقيقيين إذا كان فى مقدوره دائما أن يزود المحكمة بشهود زور تم تلقيحهم بواسطة خبراء الشرطة السرية؟! ..

هذا ما حدث فى محاكمة سراييفو : تكرار نمطى تقليدى فى النظام الشيوعى تقارير الشرطة السرية بتوجيه مباشر من وزير الداخلية نفسه كما ثبت من تحقيقات لاحقة) ، ومجموعة من شهود الزور تم اختيارهم وتلقينهم بواسطة خبراء ، متمرسين تحت الإرهاب والتهديد .

الوثيقة الوحيدة المكتوبة التى قُدمت إلى المحكمة كانت كتابا صغيرا بعنوان (الإعلان الإسلامى) من تأليف على عزت بيجوفيتش ولم يكن بهذا الكتاب شئ جديد ... بل سبق نشر محتوياته كلها فى سلسلة مقالات خلال عقد السبعينيات فى مجلة المسلمين الرسمية وكانت السلطات الشيوعية فى عهد تيتو على علم كامل بوجود هذه المقالات ولم تعترض عليها ، قرأت الكتاب وقمت بترجمته إلى العربية ونشرته دار الشروق سنة ١٩٩٩ ، وسيجد القارئ أن هذا الكتاب معنى بالشأن الإسلامى فى عمومته ومشكلات المسلمين فى العالم ... وليس فيه إشارة واحدة ليوغسلافيا أو البوسنة، ومع ذلك اعتبرت السلطات وثيقة اتهام ... ولذلك يبدو كلام ممثل الادعاء فى المحكمة عن الكتاب أمرا مثيرا للعجب ومثيرا للسخرية والضحك فى آن واحد .

عبثية المحاكمة

كانت المحاكمة كلها من بدايتها إلى النهاية مسرحية هزلية عبثية ، لم تخل من مواقف مثيرة للضحك ، وفي هذا يسوق على عزت في مذكراته نموذجين من شهادة الشهود :

النموذج الأول : - تمثله شاهدة تدعى (نيرمين) عندما وقفت أمام القاضي، وقد نبهها القاضي بضرورة أن تشهد بالحق ولا شيء غير الحق وإلا قضت عليها المحكمة بالسجن خمس سنوات لشهادة الزور ... ولأن المرأة كانت حسنة النية صدقت القاضي وشعرت كأنه قد ألقى إليها بطوق نجاة ... ولكنها تذكرت تهديدات رجال الشرطة السرية ألا تقول في المحكمة سوى الكلام الذي لقنوه إليها .. فسألت القاضي : هل حقا ستحميني إذا قلت الحقيقة ؟..

ويبدو أن القاضي قدر أنها تقصد حمايتها من أسر المتهمين فأجابها على الفور: بالتأكيد سوف نحميك ، فما أن بدأت الشاهدة تدلي بشهادتها حتى ظهر الذهول واضحا على وجه القاضي وعلى وجوه الحاضرين في المحكمة أما نائب الادعاء

فقد أصيب بصدمة كأن جدارا سقط على أم رأسه .
قالت المرأة : (كل شيء وقعت عليه أثناء التحقيق والذي اعتبروه شهادتي هو كلام لم أقله وإنما كتبه الضابط المحقق بنفسه ثم أمرني بالتوقيع عليه تحت الضغط والإرهاب ...
وكان المحقق حريصا على أن أرد على مسامحة عبارات معينة مما كتبه مرة بعد مرة حتى فقدت القدرة على المقاومة ... لقد استجوبتني الشرطة عدة مرات وأمضيت في قسم الشرطة السرية ستة أيام لكي يتأكدوا أنني حفظت الشهادة التي من المفروض أن أدلى بها أمام المحكمة عن ظهر قلب ... وعندما وصلت المرأة إلى هذه النقطة شعرت وكأنها قد تخلصت من كابوس كان يجثم على صدرها وبدا أن ضميرها قد استيقظ ليأخذ بزمام الوعي ، فاستعادت توازنها وأخذت تتحدث بثبات واطمئنان قالت : (إنني أفضل الآن أن أسجن خمس سنوات على أن أحيا يوما واحدا وأنا أعلم أنني كنت مسئولة عن أكاذيب تسببت في سجن أناس أبرياء مثل هؤلاء الذين يمثلون أمامكم وأشاروا إلى المتهمين ... ثم أضافت : إذا أردتم أن تحاكموني معهم الآن فافعلوا إن شئتم) .

لم تكذ المرأة تنتهى من كلامها حتى أطبق السكون على
قاعة المحكمة وبدت الحيرة والارتباك على وجه القاضى وكأنه
لا يدري ماذا يقول أو يفعل -ثم توجه إليها بالكلام فأمرها
بقوله : (يمكنك أن تجلسى الآن) .

شهادة حجة باشا

تابعت المحكمة الاستماع إلى الشهود الذين لم تخل شهاداتهم من أقوال متناقضة أحيانا ومثيرة للضحك أحيانا أخرى، وكان الحاضرون لا يكفون عن التهامس وتبادل التعليقات الساخرة طول الوقت ، حتى جاء الشاهد المدعو (أنور باشا ليتش) الشهير باسم (حجة باشا) وهو رجل معروف بحكمته ومرجه ولكنه تظاهر أمام المحكمة بالغباء والصمم فهو لا يفهم جيدا ولا يسمع جيدا ! ...

فلما وجه إليه القاضى سؤاله مكث الرجل يتحدث ساعتين فى مسائل لا علاقة لها بموضوع القضية ... فحاول القاضى أن يعيده إلى نقطة السؤال الموجه إليه دون جدوى فقد استمر يروى حكايات ويورد تفاصيل لا صلة لها بالقضية ... وأدرك جمهور الحاضرين أنهم أمام مشهد هزلى فى مسرحية عبثية انتزعت منهم الضحك ، مما أثار غضب القاضى فتوجه للشاهد محذراً لأنه يقول للمحكمة كلاما مختلفا عن أقواله فى محضر التحقيق ... فاعترض الرجل وقال ببساطة وهدوء : أبدأ .. إنه نفس الكلام الذى أدليت به فى التحقيق، لكن ربما كان تسجيل الكلام هو المختلف فقد سُئلت مرات عديدة .. أنا

لست متأكدا إذا كنت قلت للمحققين كلاما مختلفا عما قلته الآن .. فلما رأى القاضى أنه لا فائدة من هذا الشاهد المعتوه وأنه ليس فى الإمكان الحصول منه على شئ أخذ يتلفت حوله كأنه يبحث عن مساعدة غير منظورة ، فلما يش وأدرك أنه لايد من إنهاء هذا الموقف الهازل أمر الشاهد بالانصراف قائلاً له : (اذهب ولا أريد أن أراك هنا مرة أخرى) فتطلع الرجل فى بلاهة إلى المنصة ثم قال: (إننى متأسف جداً).

يقول على عزت : (تحول الشاهد إلى قفص المتهمين حيث كنا نجلس وألقى علينا تحية الإسلام بلهجة البشناق القدامى (الله إيمانيت) ورفع يده اليمنى ملوحاً إلينا بنفس الطريقة التقليدية .. فانفجر الحاضرون بالضحك فيما عدا القاضى ونائب الادعاء .

حضر فى هذه القضية خمسة وستون شاهدا استبعد منهم ثلاثة وعشرون شاهدا لم تتحقق فى شهاداتهم شروط الصلاحية واختلفت شهادة سبعة وعشرين منهم عما ورد فى محاضر التحقيق ، وكرر خمسة عشر من الشهود نفس الأقوال المدونة فى محاضر التحقيق .. كانوا يحفظونها عن ظهر قلب .

دفاع على عزت

وقف على عزت يدافع عن نفسه فقال : (إننى أحب
يوغسلافيا ولكنى لا أحب هذه الحكومة .. وأنا لا أحاكم هنا
فى هذه القضية لأننى خالفت قوانين البلاد، ولكن لأننى
خالفت بعض قواعد غير مكتوبة فرضتها مجموعة من
أصحاب السلطات والنفوذ أباحت لنفسها أن تشرع للناس ما
هو مسموح به وما هو محرم عليهم دون أى اعتبار للقانون
والدستور) لم يعتذر ولم يلتمس لنفسه العفو .. كان يعلم أن
المقصود بالمحاكمة هو الإسلام أكثر من أى شئ آخر .. فألقى
بقفاز التحدى فى وجه المحكمة وهو يضيف : (أود أن اقرر هنا
أننى مسلم وسأبقى كذلك تحت كل الظروف فأنا أعتبر نفسى
مناضلا من أجل الإسلام فى هذا العالم وسأظل ملتزما بموقفى
مادام فى صدرى نفس يتردد .. ذلك لأن الإسلام بالنسبة لى
هو اسم آخر لكل ما هو رائع ونبيلى فى هذه الحياة .. إنه اسم
لوعد وأمل فى مستقبل أفضل للشعوب المسلمة أن يحيوا
بحرية وكرامة مستقبل كل شئ فيه يستحق التضحية .

أما بقية المتهمين فقد تابعوا على عزت في موقفه فلم
يعتذروا عن شئ ولم يلتمسوا العفو بل اتهموا المحكمة بالظلم
والتحيز وعدم الجدارة.
وصدرت الأحكام بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة تتراوح
بين خمس سنوات إلى خمسة عشر عاما كانت من نصيب على
عزت ، فلما انتقلت القضية إلى الاستئناف في المحكمة العليا
خُفض الحكم عليه إلى اثنتى عشرة سنة وكان هذا بناء على
التماسات جاءت من بعض المشفقين في بلجراد ومن خارج
يوغسلافيا .

الحياة فى السجن

أودع على عزت فى السجن مع كبار المجرمين وسجل فى مذكراته أن القتلة كانوا أقل وطأة وشراسة من اللصوص ، فى هذا السجن ، وهذه لحظة ثاقبة من طبائع البشر كما تعرف عليها عن قرب وملاحظة يومية فى السلوك أتاحتها له ظروف هذا السجن ، فقد لاحظ انعدام الضمير والأخلاق عند اللصوص حيث لا يشعرون بالذنب على الجرائم التى ارتكبوها بينما تراود القتلة مشاعر الذنب وتأنيب الضمير فتغير مواقفهم وسلوكهم.

كانت إدارة السجن تسمح للمساجين بما فيهم قطاع الطرق بإجازات يقضونها بين ذويهم خارج السجن أما السجناء السياسيون فلم يكن مسموحاً لهم بالخروج من السجن أبداً وانعكست أوضاع السجن وكأبته على مذكرات على عزت فكتب : (شعرت أننى محكوم على بالسجن إلى الأبد وأننى لن أرى أحداً ولن يرانى أحد بقية حياتى ... ومع ذلك لم أستسلم لليأس وليس فى هذا بطولة ولكن كان الأمر يتعلق فى نظرى بالثبات والاتساق الجوانى مع الإيمان والعقيدة

.. فالإنسان قد يقول أشياء يؤمن بها فعلا ولكن عندما تأتي لحظة الحقيقة إذا يشعوره نحوها يختلف ... فمثلا كنت أعلم أن من أهم مبادئ الإسلام وتعاليمه الإيمان بالقضاء والقدر وأن على المسلم المؤمن أن يتقبل كل ما يحدث له باعتباره مشيئة الله وإرادته ... والحق أنني لم أفكر في هذه الناحية من قبل بنفس الطريقة التي بدأت أفكر بها بعد تجربة السجن هذه المرة .. فعندما واجهت حقيقة احتمال أن أقضى بقية حياتي وأن أموت بين عتاة المجرمين لم يتناقض إيماني ، وإنما انبعث في أعماق قلبي بقوة موازنة لقسوة الظروف المطبقة في السجن فشعرت بنوع جديد من التناغم بين العقيدة والمحنة مما جعلني في حالة عقلية سوية متوازنة وساعدني على الحفاظ على صحتي البدنية أيضا ... وعلى العموم فقد حمدت الله كثيرا على نعمة الإيمان الذي أعانني على التفاعل بإيجابية مع محنة السجن .. ولا يمكن أن أنسى نعمة أخرى من نعم الله على تمثلت في إخلاص أبنائي وتشجيعهم المعنوي لي في السجن) . الزمن في السجن ليس هو الزمن الذي اعتدنا عليه في الحياة العادية خارج السجن ، فهو يتشاب وتتمطى ويمضى

بطيئنا ثقيلًا يجثم على القلوب كالكابوس ويكاد يقطع الأنفاس في الصدور... وهو لا يُحسب بالأيام والأسابيع والشهور، وإنما بالساعة والدقيقة والثانية... لذلك لم يكن على عزت يتصور في أيامه الأولى بالسجن أنه يستطيع تحمل وطأة هذا المصير وبدأت تراوده فكرة أنه قد تقدم كثيرا في العمر وأن الموت قد يأتيه في أى لحظة ليختم هذا العذاب بطريقة درامية.. ولكن في نفس الوقت كانت تراوده أفكار أخرى مضادة مؤداها أن هذا المصير الرهيب في السجن ربما كان أرحم من مصير آخر خارج السجن يستهلك الإنسان ويمتص عمره يوما بعد يوم في صراع عقيم مستمر مع القوى الغاشمة للسلطات الشيوعية.

والحياة في السجن -كما لاحظ على عزت- بعزلتها عن المجتمع وانتفاء المشاغل اليومية تمنح العقل المفكر مساحة واسعة من حرية الفكر والخيال والتأمل العميق.. وفي وصف هذه الحالة يقول: (كنت أحاول أحيانا أن أخترق بخيالي بعض الحجب والأسرار الكونية الكبرى فأركز على قضية بعينها تركيزا شديدا ولفترة طويلة حتى أشعر وكأننى أقترب من

بعض الحقائق الكونية التي طالما حيرتني وراوغت عقلي ، فإذا
بى أراها فى متناول إدراكى وكأن نافذة قد انفتحت أمامى ...
وكنت حينئذ أقنئ لو كنت رساما ، فسفى تلك اللحظات
الكاشفة كان ينتابنى شعور بعجز كلمات اللغة عن التعبير عما
أشاهد وأن الوسيلة الوحيدة للإمساك بتلابيب الحقيقة لا يمكن
أن تتحقق إلا بالرسم لو أتيت لى فى ذلك الوقت أدواته ..
كنت أقف ساعات ممتلئا بالاستفسارات وأنا أحملق وأناضل بلا
أمل للإمساك بالصور المتلاحقة فى عقلى .. ومن خبرتى مع
هذه اللحظات أعتقد أننى فهمت أسرار الفن الحديث بطريقة لا
يستطيع أحد غير المبدعين أن يستوعبها.

تأملات سجين

بعد أن انتهت إجراءات المحاكمة وبدأت أتكيف قليلا مع المناخ الجديد فى السجن شرعت فى تسجيل ملاحظاتي وتأملاتي عن الحياة والمصير وعن الدين والسياسة وعن الكتب التى قرأتها وعن مؤلفيها وعن كل شئ يمكن أن يخطر على بال سجين متأمل استغرق فى سجنه أكثر من ألفى يوم استطالت أوقاتها ليلا ونهارا إلى ما لا نهاية ... وقد تحولت هذه المذكرات إلى ثلاثة عشر مجلداً من ورق كبير فى حجم (الفولسكاب) مكتوبة بحروف صغيرة صعبة القراءة .. متعمداً ألا يتمكن من قراءتها سواه ، واستطاع أحد السجناء أن يتولى تهريبها خارج السجن ثم استقرت فى سُبَات طويل لمدة عشر سنوات حتى استطاع ناشر فى سراييفو طباعتها ونشرها سنة ١٩٩٩ تحت عنوان : (فرارى إلى الحرية) .

فى بعض رسائله إلى ابنته (سابينا) أُلح إلى معاناته من لحظات معينة فى السجن هى أشد وطأة على نفسه من أى لحظات أخرى وتلك فترة دخول الليل ، فكتبت إليه ابنته تعلق على هذه الحالة النفسية التى تنتابه عند دخول الليل رسالة

تعتبر من أروع ما قرأت من رسائل تشدق بالحب والعطف
والحنان الممزج بالعقل والحكمة ... وتكشف فيها حقيقة أنها
هى أيضا تشعر نفس الشعور عند حلول الظلام وتذكره بأن هذه
اللحظات هى التى كانت تشهد لقاء أفراد الأسرة معا حيث
تتجاذب الأسرة أطراف الحديث وهم يتناولون قهوة المساء ..

يصف على عزت بعض خبرات مثيرة فى السجن فيقول :
(قد تكون أستاذا جامعا أو فيلسوفا مشهورا ، ولكنك بهذه
المؤهلات لن تكون حياتك فى السجن أيسر فبين المساجين
أفضل شئ أن تكون محاميا (مثلى) عندئذ يلجأ إليك الجميع
لكتيب لهم التماسات قانونية للإفراج عنهم إلى غير ذلك من
استشارات ومطالب وسوف يعترفون لك بجرائمهم ويصفون لك
أحوالهم ... وكانت هذه خبرة مثيرة لى ... فهل أستطيع
-بناء على هذه الخبرة- أن أقول إن بعض القتلة كانوا أناسا
طيبين؟! ... فقد قتلوا لأسباب إنسانية مفهومة ... أنا لا أقول
إنها مبررة ولكنى أقول إنها على الأقل مفهومة ... أحدهم
قتل دفاعا عن أبيه ، وسجين آخر -عمره عشرون سنة- قتل
زوجته التى كانت تخونه مع أشخاص غرباء وكانت أمها

تستتر عليها ، وقد حُكم عليه بالإعدام أولا ثم خُفف عنه الحكم إلى عشرين سنة ... قال : (بكيت كالطفل عندما نجوت من الإعدام) إلى جانب هؤلاء كان هناك مجرم قتل آخر لمجرد الحسد والحقد عليه ، هذا السجين -لغير ما سبب ظاهر- سرق كتابا من أحد أصدقائي وألقى به من النافذة في منطقة يستحيل استرداد الكتاب منها ... اعتدت أن أتجاوز مع هذا الصديق ونتفلسف معاً ... وفي مرة ترك كتابه على حافة النافذة وذهب إلى دورة المياه فلما عاد لم يجده ... واعترف السارق لى بذلك ثم قال كلاما غريبا : (أعلم أنك تؤمن بالله ولكنى لست متأكدا من وجوده ، والذي أنا على يقين منه هو أن الشيطان موجود) ويبدو هذا السارق كأنه شر محض إذا قارنته بغيره من السراق الفقراء الذين يسرقون بباعث من الحاجة ... فهؤلاء على الأقل لديهم باعث إنساني مفهوم وكان يمكن معاملتهم بطريقة أخرى غير السجن) .

الكلام كجريمة

من بين تأملاته الفلسفية عن السجن والجريمة يقول على عزت : (تعلمنا فى المدرسة أن تاريخ الجنس البشرى بدأ عندما أصبح الإنسان حيوانا تاريخيا أى عندما بدأ يكتب .. ولكنه أصبح إنسانا على الحقيقة عندما تعلم الكلام، أى أن يقول ما يفكر فيه ... ولكن جاء آخرون من بنى جلدته فممنعوه من الكلام عندما اخترعوا جريمة (التلفظ) وشرعوا لها أشد العقوبات فعادوا بذلك إلى الحقبة الغامضة من تطوره قبل أن يتعلم الكلام ... ويرجع الفضل فى هذا إلى لينين زعيم الثورة البلشفية الذى أضاف إلى قانون العقوبات فى الاتحاد السوفيتى سنة ١٩٢٢ معارضة أعداء الثورة بالكلام كواحدة من جرائم ستة يعاقب عليها بالإعدام) .

ينتقل على عزت من هذه النقطة إلى المقارنة بموقفه هو عندما أصبح رئيسا لجمهورية البوسنة والهرسك حيث كتب : (أثناء محاضرة ألقيتها فى سراييفو سنة ١٩٩٤ (أثناء حرب البوسنة) قام أحد المواطنين يسألنى عن تراخى الرقابة على الإعلام قال :

هل تعلم ياسيادة الرئيس ماذا يكتب الآن فى صحف
البوسنة الآن؟.. هذا وقت حرب ، فكيف تسمح بهذا ؟!..
لماذا لا تصدر قانونا للرقابة على ما يُنشر فى الصحف ؟..
وكانت إجابتى كالآتى : (بعد الذى أصابنى من جراء
قوانين الرقابة لا يمكننى أن أكون مسانداً لمنع الصحافة من
حرية الكلام ... وليس هذا مجرد التزام بمبدأ فحسب ولكنه
أيضا مسألة (براجماتية) فإننى أعتقد أن التحريم والقوة لا
يكسبان شيئا عندما يكون الأمر هو أمر إقناع واقتناع عقدى
... وذكرته أن القرآن نفسه أثبت هذه الحقيقة بأروع تعبير
وأبلغ إيجاز فى آية واحدة قصيرة : (لا إكراه فى الدين ...)
فإذا طبقنا هذه الآية فى مجال أوسع واعتبرنا الإيمان هو كل ما
يعتقد فيه الإنسان من أفكار لتبين لنا أن الإكراه لا يجدى ولا
يثمر فى أى عقيدة ... فهل كان الإكراه مفيدا للشيوعيين فى
القضاء على الأفكار المعارضة بالتهديد والتعذيب والسجن
والقتل .. فتلك كانت بعض وسائلهم فى قمع الأفكار ؟..
لقد دلت تجربة النظام الشيوعى وبرهنت هزيمته النهائية
على أن هذا مستحيل) .

الانتقام غير وارد

استمر سجن على عزت (٢٠٧٥ يوما) يصفها بأنها سنوات من العمر القصير أكلها الجراد وأصبحت عدما ... وعندما حصل على حريته وانتصر على الشيوعيين في انتخابات الرئاسة سنة ١٩٩٠ كانت أكثر الأسئلة التي وجهت إليه من قبل الصحافة والإعلام تدور حول فكرة واحدة هي : (هل هناك توجه للانتقام من الشيوعيين الذين فعلوا به ويزملاته ما فعلوا ؟ .. وكانت إجابته دائماً : (لا انتقام الآن ولن يحدث في أي وقت ... وبالفعل فإن كل الذين كان لهم دور في محاكمة سرايفو من الشرطة والمحققين والقضاة لم ينلهم في عهدي أي أذى بل احتفظ بعضهم بوظائفهم ... لقد عفوت عنهم كسياسي في السلطة ولكني كإنسان لم أستطع أن أغفر لهم في أعماق نفسي ذلك الظلم الذي لحق بي ويزملاتي بلا ذنب أو جريرة .

هذا الموقف أشبه ما يكون بموقف رسول الله ﷺ من وحشى قاتل عمه وحبيبه حمزة غدرا واغتبيلا ، لقد حزن النبي على

حمزة أشد الحزن ولكنه لم ينتقم من وحشى عندما تمكن منه ،
وقبل إسلامه ، ولكنه أشاح عنه ولم ينظر إلى وجهه الذى
يذكره بالغدر والاعتتيال ، ولست أشك أن هذا الموقف كان
حاضرا فى عقل على عزت ووجدانه عندما انتصر على أعدائه
وظالميه ، فالعفو والإنصاف -عند المقدرة- مع الأعداء سمة
راسخة فى سلوك على عزت خلال سيرته كلها ، وقد تعرض
فى حياته السياسية وفى حربه ضد العدوان العربى والكرواى
لألوان من الغدر والجحود والافتراءات ما يزعزع الجبال ولكنه
قابل ذلك كله بروح المؤمن المجاهد الصابر العادل ، ونجح فى
كل ابتلاء أصابه حتى أن أعداءه أنفسهم كانوا يدهشون ،
ويحسدونه حتى على محنته وإصراره ومشايرته والتزامه
الأخلاقى فى أحلك الظروف وأقساها .

من السجن
إلى قيادة الشعب

بعد موت الرئيس اليوغسلافي جوزيف بروز تيتو انطلقت
القومية الصربية من عقالها وتصادت في الثمانينيات وبداية
التسعينيات من القرن الماضي ، حيث شهدت بلجراد تحولات
في الفكر والصحافة والإعلام ، كان من أبرز معالمها الهجوم
الشرس على تيتو وتراثه وعلاقاته الخارجية وعلى الأخص
علاقته بالدول العربية والمسلمة ، وشن أنصار القومية الصربية
حملات عنيفة ضد الإسلام والمسلمين في يوغسلافيا وخارجها
.. كانوا يعملون في إطار الهياكل السياسية والإعلامية
التقليدية تحت اسم الاشتراكية ، ولكنها اشتراكية فارغة من
المعنى ، بل كانت تحتضر أمام زحف القومية العنصرية ، فقد
ظهرت مخططات جديدة تستهدف إخضاع القوميات والشعوب
اليوغسلافية الأخرى تحت الهيمنة الصربية ، باسم جديد هو
(الاتحاد اليوغسلافي الجديد) وكان في حقيقته (صربيا
الكبرى) وليس فيه من يوغسلافيا سوى الاسم .
وكانت أول خطوة عملية في هذا الطريق إلغاء دستور
١٩٧٥ الذي منح كوسوفا وضعاً سياسياً مساوياً لوضع
الجمهوريات اليوغسلافية الأخرى ، فأصبح لها ممثل في مجلس

الرئاسة الفيدرالى فى بلجراد ، وتلا ذلك إلغاء كل مظاهر الحكم الذاتى التى كانت كوسوفا تتمتع به فى ظل هذا الدستور، فلما تفجرت المظاهرات والاحتجاجات فى كوسوفا نزلت الدبابات الصربية فى الشوارع لقمع الانتفاضة ، وكان هذا أول مسمار يُدق فى نعش يوغسلافيا ، ومن ناحية أخرى تأكدت توجهات الجمهوريات الأخرى من التوجهات الخطرة لانبعاث القومية الصربية فسعت إلى الانفصال بدءاً بسلوفينيا وكرواتيا وانتهاء بمقدونيا والبوسنة والهرسك .

اقتترنت هذه التحولات فى يوغسلافيا بانتهاء مفاجئ للنظام الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى ، ثم توالى الانهيارات فى الأنظمة الشيوعية لدول شرق أوروبا .

هذه التحولات والأحداث هى التى صنعت المناخ السياسى الذى أسرع بالإفراج عن على عزت بيغوفيتش ، وكان عليه بعد خروجه من السجن أن يتعامل معه من منظور جديد ، فلم يعد على عزت مجرد مفكر ومناضل من أجل الحرية وإنما وجد نفسه قائدا وزعيما للشعب يثق به ويريد أن ينتزع حريته ويدافع عن كيانه وهويته فى مواجهة الأخطار المحدقة به .

ويعلق على عزت على هذه الأحداث فى مذكراته فيقول :

لم يكن يخالجنى أدنى شك أن هذا النظام الشيوعى المتحجر لا يمكن أن يستمر طويلا ... ولكنى لم أكن أتصور أن يكون سقوطه بهذه السرعة .. بل كنت أعتقد أننا قد نشاهد نوعا من التراخى الداخلى الذى يسمح بشئ من التعددية والاختيارات السياسية للظهور .. ولكن الأحداث برهنت على خطأ هذا التصور، فقد تبين أن النظام الشيوعى والحرية على طرفى نقيض ، فإما أن تقضى الشيوعية على الحرية وإما أن يحدث العكس .. وهذا ما حدث : ففي منتصف العشرينيات من القرن الماضى دمرت الشيوعية الحرية ، وفى نهاية القرن رأينا الحرية تدمر الشيوعية .. وكان الرمز هو سقوط جدار برلين فى نوفمبر ١٩٨٩ ثم توالى الانهيارات بعد ذلك .

كان على عزت - عكس ما زعمته وسائل الإعلام الصربية - يشعر أن تفكيك يوغسلافيا لن يكون فى صالح المسلمين بصفة عامة ولا فى صالح البوسنة والهرسك بصفة خاصة ، ولذلك كان أحرص الناس على استمرار الاتحاد اليوغسلافى فى إطار منظومة جديدة تضمن للقوميات المختلفة حظوظا متساوية من السيادة والإدارة ، ويضرب على الحبل فى هذه الناحية

بأمثلة من الهيمنة الصربية على الجيش والشرطة فى جمهورية البوسنة ، فبرغم أن المسلمين هم الأغلبية فى البوسنة إلا أن كل الوظائف القيادية فى الشرطة من الصرب و٦٣.٢٪ من عدد ضباط الجيش من الصرب ولا يمثل المسلمون فى جيشهم إلا بنسبة ٧٪ والباقى من جمهوريات يوغسلافية أخرى ، ولذلك يقول على عزت (كنت مرتبطا عاطفيا بيوغسلافيا ولكنى كنت لا أحب الهيمنة الصربية) .

إنشاء

حزب العمل الديمقراطي

عرفنا من القرآن الكريم قصة يوسف النبي الصابر المستعصم الذي خرج من السجن إلى الحكم ، وعرفنا حديثا نيلسون منديلا المناضل الجسور الحكيم الذي خرج من السجن ليقتود شعبه إلى الحرية ، وينقذه من جحيم واحد من أبشع الأنظمة العنصرية فى تاريخ البشرية ، بنفس الطريقة خرج على عزت بيجوفيتش من السجن ليجد نفسه على رأس شعب يتطلع إلى قيادته ، فيختاره زعيما لحزب جديد هو حزب العمل الديمقراطي ، ثم ينتخبه رئيسا لجمهورية البوسنة والهرسك ، وقائدا يخوض به غمار حرب ضروس ، شنها المعتدى الصربى الغاصب فى ظروف مأساوية انعدم فيها التكافؤ بين جيش من أعتى جيوش أوروبا وشعب أعزل كان عليه أن يبني قوة عسكرية من نقطة الصفر ، وكانت هذه المهمة مجرد واحدة من معضلات كثيرة كان على القائد أن يتصدى لها .. ناهيك عن مواجهة كوارث أخرى كالتطهير العرقي

والإبادة الجماعية والاعتصاف والقتل والتشريد والتجويد
والحصار الدولي الذي حرم على مسلمي البوسنة الحصول على
السلاح للدفاع المشروع عن كياناتهم ووجودهم .. وتكتمل
المأساة بموقف أوروبي مشارك بالصمت حينما وبالمؤامرة
والتواطؤ مع العدوان الصربي أحيانا أخرى .

لقد تناولت مأساة البوسنة بالتحليل والتفصيل في كتاب
بعنوان البوسنة في قلب إعصار ، ولذلك لن أتطرق إلى ذلك
في سياق هذا العرض لمذكرات على عزت ، وإنما سأكتفي
بالتعليق على بعض مواقفه المتميزة وانعكاسات الأحداث على
فكره ومشاعره ورأيه الخاص في الشخصيات التي تعامل
معها وكان أكثرها أشد وطأة وأكثر شرا من عتاة المجرمين
الذين صادفهم في حياته بالسجن ، وأشهد أن على عزت
بيجوفيتش كان عفيفا مهذبا حكيما مدركا لمواطن الضعف
البشري في كل تعليقاته على هذه الشخصيات التعيسة أمثال
السفاح ميلوسفيتش والكذاب الأشر كاراجيتش وقائد جيشه
ملاديتش شيطان الإبادة الجماعية ، ولورد أوين المضلل
الكذوب وجنرال روز المتآمر الخبيث ، هذه الصفات كلها لم ترد

أبدا على لسان على عزت بيجوفيتش، وإنما جاءت في كتابي
وصفا لحقيقة هذه الشخصيات كما رأيتها عارية من كل زينة ،
أما على عزت فهو طراز آخر فريد من البشر يصعب الارتقاء
إلى مستواه ولكنك تزداد منه اقترابا وله إعجابا كلما ازدادت
معرفتكم به ، وتشعر أحيانا بالدهشة عندما يطلعك على بعض
خواطره عن نفسه فتري إنسانا بسيطا شديد التواضع لا يتطرق
إليه الغرور بالنفس أو بالمنصب ولا يرى في نفسه مواهب أو
قدرات فريدة دون بقية الناس ، وفي هذا يقول : (انتصر حزب
العمل الديمقراطي في انتخابات نوفمبر ١٩٩٠ ووجدت نفسي
من البداية زعيما للحزب مع أنني لم أفهم أبدا لماذا اختاروني
زعيماً؟!.. لقد كنت أفكر بيني وبين نفسي : إذا كنت أنا -
مع ما في من عيوب - هو أفضل الجميع فما هو حال الباقيين
؟!.. ثم يتطرق إلى احتمال آخر تتجلى فيه روح الفكاهة
فيقول : (لعل الأمر على غير ما أظن وأنه ليس من الضروري
أن يكون الزعيم هو الأفضل ، بل من يتمتع بعيوب كبيرة فإذا
كان الأمر كذلك فإن عندي الكثير من هذه العيوب ...!!
تم إعلان قيام (حزب العمل الديمقراطي) في ٢٧ مارس
١٩٩٠م ، في ذلك الوقت كان القانون اليوغسلافي لا يزال يمنع

قيام أحزاب أخرى غير الحزب الشيوعي وكانت العقوبة المقررة هي السجن عشر سنوات ، غير أن على عزت أقدم على المغامرة وأحسب أن هذه خصلة أو سمة من سمات القائد الشجاع، ولكن على عزت يقول : (لم أعتبر هذا شجاعة وإنما هي عادة ملازمة في مجرى حياتي فأنا لا أتورع عن شيء من المغامرة إذا لم يكن منها بُد ... حدث هذا سنة ١٩٤٦ عندما التحقت بجمعية الشبان المسلمين (المحظورة) وانتهى بي الأمر إلى ثلاث سنوات بالسجن) .

اشتمل برنامج الحزب على مبادئ هامة مؤسسة على الديمقراطية وحقوق الإنسان ، ورغم أن الحزب كان مقصودا به تجميع كل المسلمين في يوغسلافيا تعويضا لهم عن الاستبعاد المتعمد من كل نشاط سياسي ، إلا أن برنامج الحزب اشتمل على إعلان صريح بأن عضوية الحزب مفتوحة لجميع الذين ينتمون إلى الثقافة الإسلامية والذين يؤيدون برنامج الحزب ، وليس في برنامج الحزب نص يقصر العضوية على المسلمين ، وفي خطاب لعل عزت بمناسبة إعلان افتتاح الحزب أراد أن يوضح لجمهور البشناق بصفة حاسمة أن هذا الحزب يمثل نقطة انطلاق فكري وسياسي جديدة وليس استمرارا للعهد البائد

فقال يصف النظام الشيوعى السابق: (إن المحاولة الكبرى لخلق
جنة أرضية بدون إله وبدون إنسان ، وبالتأكيد ضد الله وضد
الإنسان معا ... هذه المحاولة قد انتهت إلى غير رجعة بفشل
كامل). . وهنا انفجرت القاعة بتصفيق حاد طويل .. وكان
بعض الناس يعبرون عن مشاعر الغبطة بدموع الفرح فقد أدرك
الجميع أن صفحة جديدة من تاريخ البشناق قد طويت وبدأت
صفحة جديدة .

استقبال

الجماهير للقيادة الجديدة

استجابت السلطات الشيوعية بشئ من الفزع واستخدمت العبارات التقليدية فى تزييف الحقائق والأكاذيب حيث وصف تليفزيون سراييفو قادة الحزب بأنهم (مجموعة من السجناء السابقين ومن أساتذة الجامعات الفاشلين وبعض السياسيين المتطرفين) ... وكان هذا أقصى ما كان النظام المتهاوى قادرا عليه من إيذاء فى ذلك الوقت أما على النطاق الشعبى فقد سرت موجة من حمى الحماس فى الجماهير ونما الحزب نموا سريعا فى أنحاء البلاد وأنشئت فروع للحزب فى كل مدينة وبلدة ، وكان على عزت فى حركة دائية وسفر متصل يخاطب الجماهير فى كل موقع دون كلل أو ملل .. وقد حاولت السلطات الشيوعية منعه من دخول (بنياالوكا) ونجحت فى ذلك أول مرة ولكن فى الشهر التالى ذهب مرة أخرى إلى المدينة وقد اجتمع فى ميدانها العام عشرون ألف بشناقى فخطب فيهم ، وأنشئ فرع للحزب فى بنياالوكا وانتخب الناس

الدكتور حمزة موياجيتش رئيساً للفرع .

لم تقتصر رحلات على عزت لحشد التأييد لحزبه على الداخل فقط بل سافر إلى بلدان أوروبية وأمريكية كثيرة ليشرح للبشناق المهاجرين حقيقة الأوضاع الجديدة ويدعوهم لمساندة الحزب .

كان بعض المسلمين اليوغسلاف ممن قابلهم على عزت في أمريكا يتوقعون في وقت مبكر أن الصرب يبيتون شراً مستطيراً لمسلمي يوغسلافيا ومن هؤلاء (ينازالتاك دياجا تحدث إلى على عزت في اجتماع عام فقال له : (ياسيدى هل أعددت العدة العسكرية لمواجهة الشتنك ؟ (وهو يقصد القوميين الصرب الذين قاموا على مدى التاريخ بمذابح بشعة ضد المسلمين) . إنك لم تفعل . حسنا ! دعنى أقول لك إنهم سيقتلونكم ويلقون بجثثكم في نهر درينا كما فعلوا من قبل .. سيفعلون هذا بكم مهما تحدثت عن التسامح الإسلامى والامتزاج العرقى فى البوسنة .. سوف يذهبون شعبنا رغم كل شئ) .

التسامح الإسلامى فى فوتشا

فى الحرب الأهلية التى جرفت البوسنة (أثناء الحرب العالمية الثانية) بين الصرب والكروات كان أكثر الضحايا من المسلمين - وكانت مدينة (فوتشا) إحدى المواقع التى سالت فيها أكثر الدماء البريئة ، ذهب على عزت هناك، وكان خطابه تحت شعار (لا ينبغي أن تتكرر مجزرة فوتشا مرة أخرى أبدا) .. يتحدث عن السلام والصفح والمغفرة وقال : (إن المسلمين اليوم يمرون بامتحان تاريخى وأنا أرفض فكرة العقاب الجماعى للصرب بتهمة ارتكاب جريمة قام بها فريق من الإرهابيين ضد المسلمين ... فالقضية ليست قضية صرب ومسلمين إنما هناك تصنيف آخر للناس .. هناك المجرمون القتلة والضحايا الأبرياء) .. كان الأطفال من بنين وبنات مستهجنين يلقون الزهور من الجسر فى النهر حيث جرت مذبحه فوتشا .. واقترح على عزت أن توضع الزهور أيضا على مقابر الضحايا الأبرياء من الصرب ووافق الناس ، وفى ذلك يقول على عزت : (للأسف كانت هذه مشالية بلا مردود عملى .. ففى سنة ١٩٩٢ فوجئ العالم بالإرهاب الصربى المروع الذى اجتاح

المسلمين في فوتشا مرة أخرى ، بل أسوأ مما حدث في الماضي
فقتل من قُتل وأجبر السكان الباقين على الهجرة القسرية ..
ودمر الصرب كل مساجد المدينة وكان من بينها المسجد
التاريخي الشهير (الأديا) .. وهو تحفة معمارية من آثار القرن
السادس عشر الميلادي) .

دولة مدنية

وفى فيليكس كلاوتشا) تجمع ألفا إنسان يستمعون إلى على عزت فذهب فى خطابه خطوة أخرى فى طريق اللقاء مع كرواتى وصربى البوسنة حيث أكد أنه لا ينوى إقامة دولة إسلامية كما يُشاع عنه ، إنما هى دولة مدنية وأن هذا يعتبر اختيارا استراتيجيا للشعب البشناقى (المسلم).. قال : (إن البوسنة والهرسك جمهورية مدنية وليست إسلامية كما أنها ليست اشتراكية .. وحول هذا الهدف ندعو إخوتنا من الصرب والكروات أن يشتركوا معنا فى بناء هذه الجمهورية .. ثم أشار فى هذا الخطاب إلى نقطة هامة لأول مرة حين قال : إذا نفذت كرواتيا وسلوفينيا تهديدهما بالانسحاب من يوغسلافيا فلن تبقى البوسنة وحدها لتصبح جزءا من صربيا الكبرى ، وإذا اقتضت الضرورة أن نحمل السلاح للدفاع عن البوسنة فسوف نفعل) .

مؤامرة من داخل الحزب

لم يكن حزب العمل الديمقراطي يخضع لأيديولوجية واحدة وإنما تتمثل فيه تيارات مختلفة وكانت مجموعة (ذو الفقار باشتتش) أحد هذه التيارات .. وكان هو نفسه يعتقد أنه زعيم المسلمين بلا منازع .. وكان على عزت من ناحيته يشعر بأنه يتجه إلى الانشقاق عن الحزب وفي يوم ١٨ سبتمبر بينما كان يجلس في مقر الحزب يعد لاجتماع سيُعقد في إليجا حين اقتحم عليه بدون استئذان مجموعة من أعضاء الحزب يبدو عليهم الهم والاهتمام فقالوا : (إن ذو الفقار باشتتش) وفيلبوفيتش (من قيادات الحزب) قد أعلنوا -توأ- في مؤتمر صحفي أنهم استولوا على الحزب ، وأن تبريرهم لذلك هو أن الحزب يتجه نحو اليمين وأن على عزت يقود الحزب تجاه الأصولية في حين أنهم يريدون أن يقودوا الناس إلى أوروبا ... كان انقلابا كلاسيكيا بدون الرجوع إلى قيادة الحزب ولا قواعده .. وظهرت عناوين الصحف في اليوم التالي (يوم للبكاء في البوسنة) ... كانت صدمة كبيرة للشعب الذي تلاحم في لحظة واحدة وفشل الانقلاب بأسرع مما يتصور الناس

... يقول على عزت : احتشدت الجماهير فى الساحة الرياضية الكبرى ومنعوا فيلوفيتش وجماعته من الدخول ثم جاؤوا إلى وحملوني على أكتافهم عاليا ...
كان الشعب معنا بكل جوارحه .. وقد تأكدت هذا فى سلسلة الاجتماعات الحزبية التى توالى بعد ذلك ثم كشفت انتخابات نوفمبر بشكل حاسم حقيقة الأمر فقد هُزم ذو الفقار باشتيش فى انتخابات رئاسة الحزب .

شخصيات

فى حياة على عزت

من رأى على عزت أن التكوين النفسى والسمات الشخصية لقادة الشعوب لها أكبر الأثر فى تشكيل قراراتهم السياسية ودفع شعوبهم إلى الحرب أو السلام .. وأن شخصيات بعينها يمكن أن تكون سببا فى صنع كارثة، أو تجنبها والخروج منها ، من هنا جاء اهتمامه الشديد بالقادة الفاعلين فى المعترك السياسى وسعيه الدائم للحوار معهم وسبر أغوارهم عن قرب ، وقد حفلت مذكراته بالحديث عن كثير من الشخصيات السياسية وتحليل مواقفهم .

هراڤيو توجمان

تكرر اسمه كثيرا فى أزمة يوغسلافيا عندما كان رئيسا لجمهورية كرواتيا وهو دكتاتور على النمط الذى كان شائعا فى دول أوروبا الشرقية.

يقول على عزت عنه : (سمعت اسمه وأنا فى السجن وكان اسمه يذكر دائما فى البوسنة مع مشاعر مختلطة .. وقررت أن أتعرف إليه عن قرب .. التقيت به فى مقر حزبه بـزغرب وابتدأت المناقشات التى سرعان ما تحولت إلى اختلافات فى الرأى ، وعدم اتفاق مستمر بعد ذلك لسنوات طويلة ... استضافنى على الغداء فى مطعم بـزغرب فقاد السيارة بنفسه .. وانتهاز الفرصة ليجعل نفسه واضحا تماما فقال لى بالحرف الواحد : يا سيد على عزت لا تعول كثيرا على إقامة حزب مسلم فهذا خطأ كبير لأن شعب الكروات والمسلمين فى البوسنة شعب واحد ، فالمسلمون كروات وهذا هو ما يشعرون به ، قلت له معترضا : إنك يا سيدى تخدع نفسك فالمسلمون يشعرون فيما بينهم وبين أنفسهم بأنهم مسلمون ... إنهم يحترمون

الكروات كثيرا ولكنهم ليسوا كرواتا .. شرع توجمان يسرد لى بعض الحجج التاريخية لتأييد وجهة نظره ، وأنه يعرف التاريخ أكثر منى لأنه يحمل درجة الدكتوراه .. فأجيبته بأننى أتحدث عن البوسنة والهرسك الآن . وهذا ما أعرفه معرفة تامة أكثر منك .. فقال : سوف ترى أن الحزب الكرواتى فى البوسنة (HDZ) هو الذى سيجتذب أصوات المسلمين والكروات جميعا فى البوسنة وسيحصل على ٧٠٪ من أصوات الناخبين فقلت له إن حزبك هذا لن يحصل على أكثر من ١٧٪ فقط وهكذا جاءت بالفعل نسبة الكروات ١٧٪ فى انتخابات نوفمبر ١٩٩٠م ولم يكن فى الأمر سر فنتيجة الانتخابات كانت انعكاسا طبق الأصل من تعداد السكان فى البوسنة حيث يمثل الكروات فيه ١٧٪ فقط .

فكرت عبيدتيش

فكرت عبيدتيش أحد القيادات السياسية المحسوبة على المسلمين ، ولكنه كان رأساليا من نوع غريب كون ثروته من شركة أنشأها في عهد تيتو تتاجر في المواد الغذائية تسمى (أجروكوميرش) وهو رجل زئبقي له أصدقاء ، كثيرون بين الشيوعيين الصرب والكروات والقوميين ومن كل ملة وهو يساعد الكل والكل يساعدونه -هو زئبقي وولاءاته أيضا زئبقية متنقلة حيث يجد مصلحته ، يرتبط اسمه بالتمرد على بنى جلدته من المسلمين في غرب البوسنة سنة ١٩٩٣ في أحلك مرحلة من مراحل الصراع الدموي في البوسنة فأحدث انشقاقه صدمة كبيرة وأذى شديدا للمسلمين في البوسنة ، فقد كان يملك أربعة آلاف مقاتل مسلح ... وقد استطاع صرب كراجيتش تحقيق أحد أهدافهم الاستراتيجية وهو إثارة الصراع بين القوات البوسنوية، وكان انشقاق فكرت عبيدتيش هو الوسيلة إلى ذلك .. يقول عنه على عزت : (لقد انتهت صفحة عبيدتيش نهاية مؤسفة .. وكان هناك نظريات لتفسير سلوك عبيدتيش .. ليس عندي أدلة دامغة عليها .. ولكن الصرب

قالوا عنه إنه رجلهم منذ البداية .

وكان أثناء الحرب يمد الصرب بكميات هائلة من الطعام والوقود) ... هكذا كان تعليق على عزت على رجل خان شعب البوسنة وارتكب جريمة لا تغتفر فى حق وطنه وشعبه .. تعليقاً هادئاً موضوعياً ومتحفظاً يليق بقائد شريف عفيف وفارس كريم لا يجهز على عدوه حينما يسقط تحت قدميه مهزوما .

على طريق المصالحة إلى أقصى المدى

كان على عزت مستعدا أن يذهب إلى أبعد المدى في سبيل تحقيق الوحدة والمصالحة وحسن النية مع جميع الأطراف والقوى السياسية في البوسنة ، ولذلك فضل أن يشكل حكومة ائتلافية رغم أنه كان يستطيع ألا يفعل لأن حزبه فاز بأغلبية المقاعد في البرلمان ، فعل هذا من أجل التمازج الوطني فأشرك الحزبين الصربي (SDS) والكرواتي (HDZ) ولكنه يعترف بقوله : لقد أثبتت الأيام أنني كنت مخطئاً وإن كنت ما أزال أعتقد أن هذه المحاولة كانت جديرة بالاهتمام، ولو كنا اتخذنا منحى آخر لقامت الحرب في وقت أكثر تبكيرا ، وتفسيره لفشل التجربة فيما يقول : (لقد ظهر من البداية أن الحكومة تسلك سلوكا سيئا فكل حزب فيها كانت لديه فكرة مختلفة عن هوية البوسنة ومصيرها ، وبدأ أن كلا الحزبين ليس إلا امتداداً للحزب الأم سواء في بلجراد أو زغرب .. وهكذا انفتح الباب على مصراعيه للتدخل الأجنبي) .

فى ججراالثعاين

عندما ينتقل على عزت إلى الحديث عن الأزمة اليوغسلافية تتسع أفاق العمل السياسى والتزاماته ويجد نفسه فى دوامة من الصراعات القومية والتعصبات العرقية والأيدولوجية ويصطدم برجال يقولون شيئا وهم يضمرون شيئا آخر .. أدلى بتصريح صحفى فى أول رحلة له إلى بلجراد للالتحاق بمجلس الرئاسة اليوغسلافية فى يناير ١٩٩١ قال : (لقد اتفق الرؤساء على أن الجميع مع يوغسلافيا وعلى أن البوسنة دولة ذات سيادة داخل يوغسلافيا .. وأن تكون يوغسلافيا دولة ديمقراطية تتساوى فيها الجمهوريات والشعوب والقوميات .. والتزمنا بالسوق الحرة وحرية حركة الأفراد ، وانتقال البضائع ورعوس الأموال وقوة العمل فيما بين الجمهوريات .. أما مشكلة أن تكون يوغسلافيا فيدرالية أو كونفيدرالية فهى مشكلة مصنوعة .. فالديمقراطية هى الأساس .. هذا هو موقفنا المبدئى فى المفاوضات القادمة)

يبدو من كلام على عزت فى هذه المرحلة المبكرة من حياته السياسية أنه كان يجهل نوعية الشخصيات التى تعامل معها

فى مجلس الرئاسة اليوغسلافية، فهو الوحيد من بينهم الذى لم يلتحق بالحزب الشيوعى وليس لديه خبرة بالمناخ الحزبى العفن الذى عاش فيه هؤلاء الناس الذين درجوا على النفاق وتدير المؤامرات الشخصية لإزاحة الآخرين من طريقهم نحو السلطة والنفوذ والفوز بامتيازات الحزب .. وما الكلام الذى اتفقوا عليه فى هذا الاجتماع إلا محاربة لإرجاء لحظة الصدام حتى يتمكن كل واحد منهم من أدواته ووسائله المناسبة للاتقراض الناجع فى الوقت المناسب ، ولقد ظهرت أعمالهم فيما بعد مناقضة لكل ما تظاهروا بالاتفاق عليه ، فلم يكن ميلوسفيتش الصربى ولا توجمان الكرواتى يعتقدان حقاً فى استقلال جمهورية البوسنة أو سيادتها وكلاهما كان طامعاً فى أراضيها ، ولم يكن أحد منهم معنى بالديمقراطية، فعقولهم شمولية ومصالحهم الشخصية لا تُحقق إلا بالديكتاتورية ، ولم يكن أحد منهم معنى ببقاء يوغسلافيا موحدة، فكل واحد كان يتطلع إلى الانفصال والاستقلال حتى ميلوسفيتش نفسه لأنه كان يحلم بصربيا الكبرى المهيمنة على الجميع وإنما اتخذ يوغسلافيا غطاء لتحقيق مآربه ... ولم يكن هناك فى الحقيقة سوى رجل واحد - رغم كل المزاعم والاتهامات التى وجهت

إليه كذبا وافتراء- ذلك هو على عزت ، فقد كان الوحيد الذى
آمن بإمكانية بقاء يوغسلافيا موحدة فى إطار ديمقراطى وعلى
أساس من المساواة والحرية لكل الشعوب والقوميات .

نماذج من البشر

نجد فى مذكرات على عزت بيجوفيتش أسماء كثيرة
لشخصيات ترددت فى الإعلام والصحف العالمية لارتباطها
بمأساة البوسنة ، بعض هذه الشخصيات من يوغسلافيا السابقة
من أمثال سلوبودان ميلوسيفيتش وفرانيو توجمان وكراچيتش
وملاديتش ، ومن بريطانيا لورد أوين وجون ميجور ودوجلاس
هيرد ، والرئيس الفرنسى ميتران ، والجنرال لويس ماكزى
الكندى ، واليابانى ياسوشى أكاشى المبعوث الخاص للأمم
المتحدة المشهور فى الإعلام الغربى باسم ، (ميتسوبيتشى
شتنك) ، سخرية بموقفه المنحاز للمعتدى الصربى .
أصحاب هذه الأسماء -فيما بدا لى- يشتركون فى أمرين:
كراهية للإسلام وخوف من المسلمين ، ورغبة فى هزيمة مسلمى
البوسنة والقضاء على مقاومتهم ، ربما يتميز على الجميع
ميلوسيفيتش وتوجمان بأطماعهما فى أرض البوسنة وتآمرهما
على تقسيم البوسنة وضم أراضيها إلى صربيا وكرواتيا .
أخبار هؤلاء الناس وأعمالهم كانت منشورة على نطاق
واسع فى كل ما أذيع وما كُتب عنهم أثناء حرب البوسنة
(١٩٩٢/١٩٩٥) ، ولكن كتابات عزت بيجوفيتش عنهم
تميز بمذاق خاص وتكشف عن جوانب دقيقة من شخصياتهم

وتفسر لنا بعضا من مواقفهم وتصرفاتهم لم نفهمها حين
صدروها أو لم تلتفت إليها بالقدر الذى تستحقه .
فمثلا نحن نعرف أن الرئيس الصربى ميلوسفيتش وهو
يقف الآن أمام محكمة دولية محاسبه على جرائم الحرب التى
ارتكبها فى البوسنة وكوسوفا ، وأن الرئيس الكرواتى الذى
يقف الآن أمام المحكمة الإلهية كلاهما أصاب البوسنة بأكبر
الكوارث ، وكلاهما ما ترك فرصة للإساءة إلى عزت
بيجوفيتش والافتراء عليه إلا اتخذها ، ومع ذلك أجد فى
كتاباتهما عنهما موضوعية مذهلة وتجردا من الهوى ومن روح
الانتقام ، فماذا يقول عن ميلوسفيتش من واقع انطباعاته عنه
خلال مفاوضات السلام فى دايتون وانطباعاته السابقة عنه فى
مجلس الرئاسة فى يوغسلافيا السابقة ؟ ..

عن سلوبودان ميلوسفيتش يقول :

(لست متأكدا إذا كنت أعرف ميلوسفيتش معرفة جيدة ، ولكنني كثيرا ما تعجبت لتناقضات محيرة في شخصيته فكأنه هو وسياسته أمران مختلفان ، ولا أظن أنني استطعت أن أوفق بين ما يفعله وبين صورته كما تتمثل في انطباعاتي عنه ، فهو لا يبدو لي شخصا بغيضا ، وإنما كنت أشعر أنه يتحدث وهو في حالة من السكر الخفيف وتتملكه رغبة في الكلام المستمر ، ويظهر أنه يؤمن بما يقول .. ولابد أنه جرى، ولا أستطيع أن أقول عنه أنه منافق .. ربما يعاني من انقسام في الشخصية .. تتكشف عن صراعات دفينية بين عوامل الخير والشر فيه ... ولابد أن الشخص الآخر أو الجانب الشرير فيه هو المسيطر ، ومن ثم كانت إفرازاته الشريرة هي السائدة، وقد تجلت في دأيتون حالة من عدم الاتزان والتأرجح بين تشدد بلغ حد الاستماتة في التفاوض حول سرايفو حيث رفض كل مطالبنا بشأنها رفضا قاطعا واستمر على هذا الرفض فترة طويلة ثم فجأة ومن غير مقدمات قبلها جملة واحدة وهب

واقفا ليغادر المكان وهو يقول سوف أذهب إلى هؤلاء الأغبياء
وكان يعنى صاحبي كراجيتش الذين ينتظرون نتائج المفاوضات
فى غرفة مجاورة) .

ويعلق على عزت على ذلك بقوله :
(أظنه كان صادقا فى وصفه للرجلين وأن هذا هو ما يعتقده
فيهما بحق) ...

ما يلفتنا إليه عزت بيجوفيتش هنا هو هذا الجانب المريض
فى شخصية ميلوسفيتش الذى وصفته فى كتابى بحق بصانع
الكوارث ، وكأنه يلتمس له بعض العذر فيما أفرط فيه من
شور وجرائم .

فرانكو توجمان

أما عن فرانكو توجمان فيقول عنه :

(ما أحببت هذا الرجل قط .. ففي مظهره نفخة وغرور واضحان وفي سلوكه تكلف شديد وإفراط في الشكليات الفاقعة .. ولا يستطيع أن يخفي شراسته فهو دائما ما يعبر بفجاجة عن رغبته في ابتلاع قطعة من أرض البوسنة). ويقول عنه أيضا : (يبدو أنه قرأ كتاب هانتنجتون (صراع الحضارات) ووجد سعادة كبيرة في قراءته فهو يتخذ منه سنداً نظريا يغذى به شهيته في الاستيلاء على أرض البوسنة ودحر أصحابها المسلمين ... وكان التقسيم طبقا لخط هانتنجتون هو فكرته الشائبة التي يدور حولها وعندما اشتدت ضراوة هجوم الناتو في كوسوفا سنة ١٩٩٩ خرج علينا توجمان باقتراحه تقسيم كوسوفا إلى شقين أحدهما ألباني والآخر صربي ... وكأنه مأخوذ بفكرة التقسيم ظل يكررها في كل مناسبة ويغير مناسبة .

ولكن رغم هذه الصورة الفاقعة عن فرانكو توجمان يجد عزت بيجوفيتش في نفسه القدرة على أن ينصف الرجل ولا يغمطه

حقه فيما يستحق عليه التقدير ... انظر إليه وهو يبرز لنا
الجانب الآخر من صورة فرانكو توجمان يقول: (توجمان هذا
ليس شيئا واحد وإنما اثنان أحدهما لكرواتيا والآخر لبوسنيا
والعالم الخارجى ... فإنجازاته لكرواتيا لا تقدر بثمن فقد
وضع أساسا قويا لدولة كرواتيا المستقبلية .. دولة ديمقراطية
ومتقدمة وكأنه أراد أن تكون دكتاتوريته هى آخر النظم
الدكتاتورية فى حياة هذه الدولة ... وإنجازاته الأخرى
لكرواتيا متعددة ومستمرة ، ثم يستطرد قائلاً :
إن أخطاء توجمان فى كرواتيا مؤقتة وقابلة للإصلاح ..
أما بالنسبة للبوسنة فالأمر على عكس ذلك تماماً فأثاره المدمرة
لاتزال قائمة فيها فالفيدرالية التى اتفقنا عليها بتحريضه
وتدخله ظلت إلى اليوم شكلاً بلا مضمون ، فمدينة موستار
ما تزال منقسمة إلى شطرين منفصلين شطر للبشناق وشرط
لكروات البوسنة ، وبها دولتان وجيشان منفصلان ونظامان
مختلفان فى المالية والتعليم والبريد والسكر الحديدية .. وإن
بقى الأمل يراودنا فى تقدم نحو الوحدة (بعد رحيل توجمان).

الفيدرالية عند توجمان

كان على عزت يعول كثيرا على الفيدرالية بين البشناق وكروات البوسنة ، فعندما توجدت جهودهم العسكرية كانوا يحققون نتائج باهرة فى تحرير أرض البوسنة من الاحتلال الصربى ، حتى كان حصار بنىالوكا معقل القيادة العسكرية المركزية لكرايشتش ... هنا تدخلت أمريكا بإغراء توجمان بمكاسب معينة إذا عمل على فض هذا الحصار وقد فعل ، هذا النكوص من جانب توجمان أضعف مركز البوسنة فى مفاوضات السلام التى انعقدت بعد ذلك فى دايتون ، ولم يكن هذا الموقف غريبا على توجمان فهو فى سياسته الخارجية انتهازى متقلب المزاج لا يؤمن جانيه ، اعتاد على الإدلاء بتصريحات مفاجئة تعبر عن عدا كامن للبوسنة وقيادتها ، كان فى باريس وأدلى بحديث إلى صحيفة (لو فيجارو) صرح فيه أن كرواتيا قد منحت مهمة (أوربة) البشناق المسلمين (يقصد جعلهم أوروبيين) وأن الفيدرالية قد خلقت لأن أوروبا والعالم معها لن تسمح بقيام دولة مسلمة فى أوروبا .

وقد سبب هذا التصريح بليلة وفتنة كبيرة بين الشعب البوسنى ، وجاء صحفى من (لوفيجارو) ليسأل عزت بيجوفيتش : (ماذا يعلق على هذا التصريح) ، فكان رده على الوجه الآتى : (قبل كل شئ توجمان يعلم جيدا أن أوروبا هى التى فرضت علينا دولة مقتصرة على المسلمين وفق خطة تقسيم (أوين-ستولتنبرج) ونحن الذين رفضناها ، ذلك لأن الشعب البشناقى قد اختار دولة بوسنوية موحدة ومدنية ، وقد تابعت هذا الاختبار بإصرار وبلا انقطاع ، أما بالنسبة لأوربة المسلمين ... فدعنى أقول لك نحن بلد أوروبى وشعب أوروبى ... وأنا لا أقرر هذا لأن فيه ميزة أو فضلا ... ولكن ببساطة شديدة هذه هى الحقيقة التى لا يستطيع أحد إنكارها .. وأعتقد أنه من الخطأ تقسيم العالم إلى أوروبى وغير أوروبى فهذه إهانة لبقية العالم وأنا أعلم (من واقع خبرتى) أن بلادا وشعوبا كثيرة فى العالم يرفضون هذه التصنيفات المهينة ... وأود أن ألفت نظرك إلى أن كاراجيتش وملاديتش (وأنت تعرف جرائمهم) من الأوروبين ، وكذلك كان الجنرال الذى دمر (بلا داع) جسر موستار الأثرى .. هو أيضا أوروبى ولكن

كونه أوروبيا لم يمنعه من ارتكاب هذه الجريمة الحمقاء ...
أعتقد أن تقسيم الناس يكون بطريقة أفضل إذا قلنا : أناس
متحضرون وأناس همجيون برابرة .. هذا هو التقسيم الوحيد
الصحيح ، وما سواه ليس إلا إهانة سفيهة .

تعرض عزت بيجوفيتش فى مذكراته للحديث عن الجنرال
تيتو الرئيس الأسبق ليوغسلافيا ، حيث نجد فى تصويره
لشخصيته هذا التوازن الدقيق والموضوعية التى اتسمت بها
كتابات عن الشخصيات العامة التى عاصرها أو التقى بها ،
سأله صحفى عن تيتو وهل ساعد البشناق فى حياته ؟ ..

وردا على هذا السؤال قال : (أنا لا أحب إخفاء تعاطفى مع
هذا الرجل .. صحيح أننى ما أحببت يوما ما أيديولوجيته
الشيوعية ولا طريقته فى الحياة وقد اتسمت بالبدخ والرفاهية
المفرطة التى تجلت فى جزيرته الساحرة فى البحر الأدرياتيكي
(جزيرة بريوني) وفى قصوره واستراحاته المتعددة التى كان
يستخدمها فى رحلات صيده وفى أسفاره الكثيرة إلى غير
ذلك من مظاهر البدخ ، ولكن كنت أعتقد دائما أنه إنسان
فاضل وأننى لم أخطئ فى هذا الحكم ، هو على الأقل ليس
إنسانا سيئا ولا شريرا ... لقد كان شيوعيا ولكنه لم يكن

بلشغياً مفرطاً فى القسوة ، فإذا كان النظام الشيوعى شينا
بشعاً وخاطئاً إلا أنه أدخل عليه كثيراً من التعديلات ليكون
إنسانياً ومحتسلاً ، قالوا عنه إنه كان يعشق الحياة وفى
تقديرى أن من يعشق الحياة لا يكره الناس لأن عشق الحياة
وكره الناس لا يتفقان ولا يجتمعان فى شخص واحد ، وهناك
الزهاد المتقشفون لا بسبب عقيدة فى الزهد وإنما بسبب تجارب
محبطة فى حياتهم ، وهؤلاء لا يستطيعون أو لا يعرفون كيف
يحيون حياة حقيقية ومن ثم لا يدعون غيرهم ليعتصموا
بالحياة.

والذين عرفوا تيتو جيداً قالوا إنه لم يكن استراتيجياً
عظيماً ولكن لا أحد ينكر أنه كان سياسياً بارزاً ، ربما كان
أبرز شخصية فى منطقة (البلقان) فى القرن العشرين ، لقد
انقسمت يوغسلافيا من بعده وانهارت ولكن لم يكن هذا خطأه
وإنما كانت الهيمنة الصربية المتجذرة فى النسيج اليوغسلافى
هى البذور التى أدت إلى هذا الانهيار ... ولا شك أن تيتو
حاول تقليص هذه الهيمنة ولكنه للأسف خسر المعركة ..
ويمكننا أن نقول إن الأشياء الخيرة فى يوغسلافيا جاءت
معظمها من ناحية شخصيته وأما الأشياء السيئة فقد جاءت

من أيديولوجيته ، أو كانت موروثه من نظام قبله ، أو نقول بطريقة أخرى أنه كان رجلا حسنا على رأس نظام سيئ ، أو كان سيئاً في بداية حكمه (من سنة ١٩٤٤ إلى ١٩٦٦) حيث كانت يوغسلافيا دولة بوليسية يديرها رئيس الشرطة ألكسندر رانكوفيتش ، ثم تحسنت الأوضاع في الأربع عشرة سنة الأخيرة ... ولعل المقارنة تجلى الحقيقة لنا أكثر :

فإذا قارنت يوغسلافيا تيتو بالنمسا مثلاً سواء في مستوى المعيشة أو في حقوق الإنسان تسقط يوغسلافيا ، ولكن بالمقارنة مع بلغاريا ورومانيا وألبانيا أنور خوجا ، تبدو يوغسلافيا بالنسبة لهذه البلاد كأنها أمريكا .

هكذا نرى عزت بيجوفيتش في أحكامه على الناس بمسك بميزان العدل في يده فلا ينساق مع الهوى ولا ينحرف مع الغضب والكراهية .. بل يعطي كل ذي حق حقه بلا إفراط ولا تفريط ، كأنه قد تشرب في عقله ووجدانه روح الآية الكريمة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ .

نماذج متحيزة من بريطانيا

برتشكو مدينة بوسنوية تقع على نهر سافا في الركن الشمالي الشرقي ، كان أغلب سكانها من المسلمين ولكنها تعرضت للتنظيف العرقي وشرد سكانها من غير الصرب ... موقعها استراتيجي وكانت هي المشكلة المستعصية التي بسببها أوشكت مفاوضات السلام في دايتون على الانهيار .. كان صرب البوسنة مستميتين في الاستحواذ عليها لأنها كانت تقع عند بداية ممر أفقي يصل بين شطري الأرضي المخصصة لهم في خطة التقسيم المقترحة من قبل لجنة الاتصال وكان التحيز الأوروبي لمطالب الصرب نموذجاً فظيماً صارخاً لإجبار الضحية على الركوع والاستسلام للمعتدى الصربي والخضوع لمنطق القوة الغاشمة .

في ١٣ نوفمبر ١٩٩٥ دعى عزت بيجوفيتش للاجتماع مع وفد بريطاني مؤلف من اثنين : آلان تشالتون وبولينا نفيل-جونز من وزارة الخارجية ، لم تحاول بولينا نفيل-جونز أن تخفي كراهيتها المقيتة للمسلمين وهي تعبر عن قلقها لعدم

التقدم فى المفاوضات ثم هددت بسحب قوات الأمم المتحدة من البوسنة ، وباستعلاء وعجرفة قالت لعزت بيجوفيتش فيما أورده فى مذكراته : يجب أن تفهموا أن المجتمع الدولى مستعد للبقاء هنا فى البوسنة فقط فى حالة توصلكم إلى اتفاق ... وأى إشارة منى يمكن أن تؤدى إلى انسحاب قوات الأمم المتحدة التى مافتئت تخفف المعاناة عن شعبيكم .. بل ستكون العواقب أوخم من هذا إذا لم تصلوا إلى اتفاق فورى ... ثم أضافت : إنها جاءت لتحذيرنا فى الوقت المناسب ، يقول عزت بيجوفيتش : (اعتبرت هذا الكلام ضغطا مكشوفاً لا مبرر له وأجبتها : (الأجدر بك أن تدافعى عن خريطتكم ... خريطة مجموعة الاتصال .. ولا ينبغي السماح للجانب الصربى أن يحصل على مكافأة للإبادة الجماعية التى اقترفها ... ومع استمرار المحادثات استمر الوفد البريطانى يدافع عن المطالب الصربية فى ممر أوسع .. فاعترضت قائلاً : (المفروض أنكم هنا لمساعدتنا فى الحفاظ على وحدة الدولة ولا يصح أن تساعدوا القتل ... اذهبوا إلى ميلوسفيتش فهو يريد بفارغ الصبر أن ترفعوا عنه الحصار الاقتصادى .. اضغطوا عليه هو لكى يكف عن أطماعه فى البوسنة ولا يكن همكم الدائم هو الضغط

علينا بلا مبرر ... ألقيت هذه العبارة الأخيرة بغضب ظاهر ..
ومع ذلك استمرت السيدة نفيل-جونز بنفس اللهجة المتعجرفة
فى التهديد مؤكدة أن أوضاعنا ستكون أسوأ من أوضاع
الصرب إذا توقفت المفاوضات ، وأن العواقب بالنسبة لنا
ستكون أوخم ... حاولت أن أشرح للوفد أن ميلوسفيتش يريد
توسيع المر حتى يتمكن من فصل جمهورية صرب البوسنة ولا
يصح أن تقوم بريطانيا بمساندة الانفصال ... استمر الجدل
عنيفا .. وتدخل حارس سيلاجيتش (وزير الخارجية) حيث
قال: (لقد ارتكبت صربيا إبادة جماعية وهى التى خلقت هذا
الوضع فى برتشكو وليس من حقكم الدفاع عن موقفها)
وأضفت إلى ذلك قائلاً: (لقد وافقنا على خطة مجموعة
الاتصال بعد أن وافق عليها ميلوسفيتش ... وليس فى هذه
الخطة أى ممرات ومن واجبكم أن تذكروه بهذا وأن توجهوا
تهديداتكم إليه لا إلينا ... لم يعجب الوفد البريطانى هذا
الكلام المنطقى فانصرف ساخطاً متأففاً) .

كان هذا موقفاً غريباً ثابتاً متكرراً تجاه البوسنة المسلمة من
قبل العديد من الشخصيات الأوروبية والعالمية ... استأسد
الجميع على البوسنة فى محنتها الطاحنة ، وأرادوا هزيمتها

واستسلامها أو استئصالها من الوجود كما يفعلون اليوم
بالفلسطينيين ، لولا الوقفة البطولية لشعب البوسنة وقيادته
الصلية التي استمسكت بالمقاومة والإيمان بنصر الله مهما طال
أمد المعاناة .

المثقفون المحايدون

لم يخذل البوسنة أناس من خارجها فقط بل خذلها أيضا فئة من أبنائها المثقفين أصيبوا بضمور شديد في حاسة الانتماء القطري فصنعوا لأنفسهم هوية زائفة وانتماءات أنانية من صنع أوهامهم وضلالاتهم ... وهنا ينهنا عزت بيجوفيتش إلى حقيقة بسيطة وإن كانت تنطوي على معاني إنسانية خالدة عندما يقارن بين ضلال هذه النخبة وبين سلامة الفطرة التي يعبر عنها الأطفال بعفوية مطلقة .

اعتاد عزت بيجوفيتش وهو رئيس للجمهورية والحرب دائرة أن يزور مدرسة ابتدائية في سراييفو من حين لآخر ويتحاور مع الأطفال في فصولهم وكان يقارن بين أفكار هؤلاء الأطفال وبين أفكار بعض المثقفين ويجد أن أفكار هؤلاء الأطفال يرجح أفكار المثقفين ... وفي هذا يقول : (قد لا يوافقني في ذلك بعض الناس ولكن هذه مشكلتهم فأنا أجد الأطفال رؤيتهم شديدة الوضوح فيما يتعلق بوطنهم البوسنة وعن الشعب الذي ينتمون إليه هذه المفاهيم واضحة في عقولهم

وضوحاً لا لبس فيه ... بينما أسمع من بعض المثقفين ثرثرة
يقال فيها : أنا محايد .. الحرب لا تعنينى .. أنا فوق هذا كله
.. هؤلاء المثقفون المحايدون دائماً فوق شئ ما .. خارج شئ ما
.. حتى مع هذا الصراع الدموى الذى قتل فيه الأطفال
واغتصبت النساء هم محايدون .. فهل يمكن أن يكون لأى
إنسان حق فى الحياد أمام هذا الوضع المأساوى ؟ ..
هذا وقت نضال لا وقت حياد وسلبية .. فالخير والشر لم
يتصادما بمثل هذا الوضوح الشديد .. حتى الأعمى يستطيع
أن يميز بين هذا وذاك .. ولكن هؤلاء المثقفين محايدون فيما
للعار ! ...

لهؤلاء المثقفين المحايدين قصة أخرى فى البوسنة فهم لم
يكونوا مناضلين أو ثائرين فى يوم من الأيام بل كانوا أبواقاً
تردد أفكار السلطة الحاكمة ويصفقون للنظام أينما اتجه
ولكنهم يدعون لنا اليوم أنهم كانوا دائماً ثائرين ومناضلين ،
والغريب أنهم لا يكفون عن الكلام ولكن يدورون فى دوائر
مغلقة حول مشكلات الحرب والقتل والاعتصام ولكن لا
يستطيعون أن يصرحوا بوضوح : من الذى يقتل ؟ .. من الذى
يطلق الرصاص ؟ .. من الذى يقتصب ؟ .. من المعتدى ومن
الضحية ؟ ..

يقول عزت بيجوفيتش :

مع أمثال هؤلاء بحالهم الذى هم عليه لن نصل إلى شئ ..
ولكن لحسن الحظ -رغم كثرتهم- ليس لهم تأثير كبير) .
هؤلاء المشفقون المحايدون بعد دايثون وبعد ترسيخ النفوذ
الأمريكى الأوروبي لم يعودوا محايدين فقد أصبحوا يمثلون
المعارضة ويتجرون على الهجوم والنقد لحكومتهم البوسنوية ،
وقد تبثوا كل المقولات الأجنبية عن الإسلام والمسلمين ،
وأصبحوا أداة نشطة فى إطلاق الأكاذيب والافتراءات على
حزب العمل الديمقراطى وعلى الرئيس عزت بيجوفيتش وعلى
أسرته .

السياسيون ومكانهم

عزت بيجوفيتش سياسى من نوع متفرد فهو يكره التكلف والتظاهر والنفاق وكلها عملة متداولة فى أوساط السياسيين ، وأثناء محادثات السلام فى دايتون كثرت اللقاءات السياسية والاجتماعات غير الرسمية وحفلات العشاء الرسمية وقد شعر حيال هذا كله بمقت شديد ، فقد بدا له أنه ليس طبيعيا أن تأكل وتحاول تبادل أطراف الحديث مع أناس ليسوا بأصدقاء ، يقول فى هذا :

(لقد احتججت وقتا طويلا لكى أفهم أن الابتسامات والتحيات السياسية لا تعنى شيئا حقيقيا على الإطلاق ، فقد يبتسم إليك شخص ابتسامة عريضة تظنها مخلصة بينما هو يوقع عليك حكما بالإعدام) .

ومن احتكاكه بعدد كبير من السياسيين فى العالم اكتشف أنهم يفتقرون إلى العبقرية ، بل لا تجد فيهم الرجل الذى يحوز على إعجابك ويأسر مشاعرك بسجاياه ..وهو يرى أن العباقرة الحقيقيين لا يوجدون إلا فى مجالات العلوم والفنون ، أما

السياسيون سواء كانوا صغاراً أو كباراً فيمكنك أن تصنفهم
في مكان وسط بين العبقريّة والغباء وإنما يتميزون بعضهم عن
بعض بفروق هائلة في الغرور والطموحات .

سلام ظالم

بعد انتهاء محادثات السلام والتوقيع على اتفاقية دايتون
فى ٢١ نوفمبر ١٩٩٥ وجه حديثنا إلى شعب البوسنة قال فيه :
"قد لا يكون هذا سلاما عادلا كما نتمناه .. ولكنه أكثر عدالة
من استمرار الحرب .. فى وضع كهذا الذى وجدنا فيه وفى
عالم كهذا العالم لم يكن فى الإمكان أن نتوصل إلى سلام
أفضل من هذا .. إن الله شاهد علينا أننا قد فعلنا كل ما فى
وسعنا وطاقتنا لكى نقلل من حجم الظلم الواقع على شعبنا
وعلى بلادنا ثم يضيف "ولدى عودتى من دايتون سألتنى
صحفى بوسنوى من صحيفة ليليان عن معنى عبارتى (فى
عالم كهذا العالم"؟..
فأجبته : (إنه عالم يمكن فيه أن تشن حربا ظالمة وتفرض
سلاما غير عادل !) ..

لقاءاته الصحفية وتصريحاته

عندما يتحدث البعض عن قدوم المنقذ الأمريكى لتخليصنا من طغيان الأنظمة السياسية واستبدادها ولنشر الديمقراطية ونور الحضارة ، فيجب أن نتوقف قليلا لفحص قدر الصدق فى هذه الرسالة ، فلا شك أننا فى أمس الحاجة إلى الديمقراطية والعدل ونور الحضارة ، ولكن هل هذه بضاعة قابلة للتصدير ؟ وهل تصدرها لنا أمريكا بلا مقابل ؟ وهل أوفت أمريكا بوعودها لأى شعب مسلم ؟..على مثل هذه الأسئلة يجيب على عزت بيجوفيتش فى مذكراته ويشرح لنا تجربته مع أمريكا والدول الأوروبية فيما يتعلق بتنفيذ اتفاقية دايتون للسلام ، فقد نشطت هذه الدول فى تنفيذ الشق العسكرى والسياسى الذى يضمن وقف الحرب وتأمين وجود القوات الأجنبية والإدارة الأجنبية على أرض البوسنة ، أما الشق المدنى من الاتفاقية الذى يشتمل على إعادة إعمار البوسنة وإعادة اللاجئين إلى ديارهم وتسليم مجرمى الحرب إلى المحكمة الدولية الخاصة بذلك فى لاهاي ، كل ذلك لم يتحقق منه إلا القليل .

فيعد ثمانية أعوام لم يعد من المسلمين إلى ديارهم إلا ٢٪ فقط بينما عاد كل اللاجئين الصرب والكروات إلى المناطق التي يسيطر عليها المسلمون ، ولا تزال القوات الدولية تماطل في إلقاء القبض على أكبر المجرمين المسؤولين عن التطهير العرقي في البوسنة وعلى رأسهم رادوفان كراجييتش وقرينه الجنرال ملاديتش ، وما نسمع عنه أو نراه على شاشة الفضائيات العالمية من وقت لآخر عن المطاردات وتفتيش أماكن يشتبه في وجودهما بها ليس إلا سيناريوهات تضليل للرأي العام العالمي ، ذلك لأن هناك موقفا أوروبيا ثابتا في هذه القضية ، ومن يتشكك في هذا عليه بالإطلاع على مذكرات ريتشارد هولبروك المفاوض الأمريكي صانع اتفاقية دايتون في كتابه (إنهاء حرب) To End a War الصادر سنة ١٩٩٨ ، أما إعادة إعمار البوسنة فلم يتحقق ، ولعل هذا كان هو السبب الرئيسي في استقالة الرئيس على عزت بيجوفيتش من منصبه فقد كانت الإشارات تصله واضحة بأنه مآدم هو في قيادة شعب البوسنة فلن يكون هناك إعمار ، وكان التحريض الأجنبي للمعارضة الشيوعية والعلمانية

وحملات الهجوم والافتراءات على حكومة عزت بيجوفيتش
وحزبه تتم بتنسيق مفضوح بين الأجنبي وبين القوى المحلية
الطامحة إلى السلطة ، ولأنهم وضعوا قضية إعادة إعمار
البوسنة ومصالحتها في كفة ووجود عزت بيجوفيتش في الحكم
في الكفة الأخرى ، وقد أثر الرجل مصلح بلاده وضحي
بالسلطة ، وحمد الله أنه تخفف من مسئولية أرهاقته وتركت
بصماتها قاسية على قلبه وصحته وحياته .

تجربته مع الأجنبي

لقد استجاب عزت بيجوفيتش لجهود السلام الأمريكية لكي يضع حدا لنزيف الدم الذي تعرض له شعبه ، وقبل بوجود قوات أجنبية على أرض بلاده كضرورة لا بديل عنها ، وكان كارها لذلك أشد الكراهية ، وفي هذا يقول : (كثيرا ما حدثت نفسي .. وصرحت في مناسبات عديدة أنني رغبت في شيء وكرهته في نفس الوقت ، ألا وهو وجود قوات أجنبية في البوسنة .. فالأجانب يساعدونك في أول الأمر ثم يتحولون إلى قوة مهيمنة مستبدة .. وهم في هذا ينفذون برامجهم وما يتفق مع مصالحهم وأهوائهم ، ويضربون عرض الحائط بمصالحك ولا يقيمون وزنا للمواثيق والوعود التي قطعوها على أنفسهم ... وتلك تجربة على عزت بيجوفيتش لعلنا نستخلص منها درسا أو عبرة .

أعود إلى الخط العام في تقديم مذكرات صاحب السيرة لنكتشف أبعادا أخرى من شخصيته المتعددة المواهب .. وسوف نجد - بهذا الصدد - في لقاءاته الصحفية وفي تصريحاته أمام المحافل الدولية ثروة فكرية وجرأة نادرة في الحق .. وهي جرأة مقرونة بالحكمة والفهم العميق للقوى والأفكار التي تحرك هذا العالم .

مع عبد الله سيدران

نبدأ بسلسلة من اللقاءات معه .. أجراها صحفي شاعر
وكاتب سيناريو مرموق في البوسنة هو عبد الله سيدران ..
نُشرت حلقات هذه السلسلة في مجلة (سراييفو سلوبودنا
بوسناً) في ثلاثة أعداد بتاريخ ١١ و ٢٥ أغسطس و ٨ سبتمبر
١٩٩٦ م .

سأله في البداية عن أصوله الأولى وما قيل عن انتسابهم
إلى بلجراد وفيما كانت هجرتهم منها وإلى أين ؟ ..
وقد أكد عزت بيجوفيتش أن بلجراد بالفعل كانت هي
موطن أجداده الأول وقد استقروا فيها حتى سنة ١٨٦٨ م ،
عندما ثار الصرب ضد القوات العثمانية واستولوا على بلجراد
لينكلوا بالمسلمين ويطردوهم منها ، فتشتتوا في الأفق ،
وتوجهت مجموعة اللاجئين الذين رافقوا أجداد عزت
بيجوفيتش إلى موقع للإيواء في شمال شرق البوسنة .. كان
مجرد موقع مؤقت للإيواء في أرض منحها لهم السلطان
العثماني عبد العزيز ، تحول إلى بلدة معمورة باسم (العززية)

ثم تغيير الاسم بعد ذلك إلى (ساماتشر) ، ولهذه البلدة قصة مشيرة في حياة عزت بيغوفيتش يقول فيها : (... بعد مقتل فرديناد ولي عهد النمسا في سراييفوا سنة ١٩١٤ على يد إرهابي صربي أخذ النمساويون عددا كبيرا من الصرب من مختلف المدن البوسنوية رهائن فيما عدا (ساماتش) ، ذلك لأن جدى - وكان عمدة للبلدة - رفض تسليم أربعين شابا صربيا إلى السلطات النمساوية ووضعهم في حمايته ، وكان لهذه الوقفة الإنسانية الشجاعة من جدى أثر في إنقاذ حياتى بعد ثلاثين سنة ، ففي سنة ١٩٤٤ اختطفتنى عصابة الشتنك الإرهابية (وهم من القوميين الصرب) وكانت تنوى قتلى .. ولكن جاءت مجموعة من الصرب للتدخل والحيولة دون ذلك حيث قصوا على الكولونيل (كيزيروفيتش) قائد الشتنك قصة جدى الذى قام بحماية أربعين صربيا ودافع عنهم ضد القوات النمساوية سنة ١٩١٤ م ... وحشوه على أن يقوم هو أيضا برد الجميل ... والحمد لله خرجت من المعتقل هذه المرة ورأسى فوق كتفى).

قراءاته

سأله سيدران عن قراءاته فى السجن وعن اهتماماته الأدبية والفلسفية ؟ .

فقال : (كان من حسن حظى أو من سوءه -لأدري- أننى قرأت كثيرا جدا .. وقد تبين لى فيما بعد أن كثيرا مما قرأته من كتب الفلسفة كان عديم القيمة أو كان يمكن الاستغناء عنه بتعلم لغة أجنبية فذلك أجدى (مثلا) من قراءة كتب الفلسفة الهندية) .

البشناق والبوسنة

وفيما يتعلق بالإعلام قال سيدران : حزنتم لأنك ياسيدي الرئيس وافقت على إنشاء محطة تلفزيونية جديدة خاصة بالبشناق (وهو الاسم التاريخي لمسلمي البوسنة) .. وسألت نفسي : هل هذا في صالح البوسنة أم اتجاه يمكن أن يؤدي إلى تمزيقها ؟ ..

عزت بيجوفيتش : تخطئ إذا وضعت البشناق والبوسنة على طرفي نقيض ، وأن تعتقد أن أي زيادة في طرف تؤدي بالضرورة إلى نقص في الطرف الآخر ! ..

هناك أناس يعتقدون أن إضعاف البشناق يؤدي إلى بوسنة أقوى .. وهذا غير صحيح .. فبوسنة قوية موحدة وديمقراطية لا يستلزم شيئا من ذلك ، هؤلاء الناس يرون أنه من الأفضل أن ينسى البشناق عقيدتهم وماضيهم وحتى أسماءهم ففي هذا تقوية للبوسنة .. وهو غير صحيح أيضا ، وإنما العكس هو الصحيح : إن شعبا من البشناق الأقوياء الواعين هو العمود الفقري لدولة البوسنة والهرسك .. وهو الضمان الأساسي لإنقاذ البوسنة في مواجهة الأطماع التوسعية من الدولتين

المجاورتين الشرقية (صربيا) والغربية (كرواتيا) ... وهو الذى
سيأخذ البوسنة والهرسك تدريجيا فى طريق الوحدة .. البشناق
هم الضمان بأن الستار لن يسقط على دولة البوسنة ...
سيدران يعترض على شعار حزب العمل الديمقراطى الذى
يقول : (فى عقيدتنا وعلى أرضنا) ويرى أن هذا الشعار
يتناقض مع فكرة البوسنة الموحدة متعددة الأعراق - ثم يسأل :
أريد تعليقك على هذا .. كيف تنسجم الوحدة مع الحديث عن
(الدين والأرض) كما فى شعار الحزب .
عزت بيجوفيتش : آسف أنك تبدأ من افتراض خاطئ ..
فأنت تفترض أن حزننا هو البوسنة بينما الحقيقة أنه أحد
الأحزاب البوسنوية وإن كانت تركيبته بوشناقية .. ونحن لا
نخفى هذه الحقيقة .. ولكننا نؤمن أن سنوات من العمل
المشترك بين البشناق والعناصر الوطنية الأخرى من صرب
البوسنة وكرواتيا سوف تنبثق الوطنية البوسنوية بمجموعة من
القيم المشتركة تكون أساسا للوحدة .

مستقبل البوسنة رؤية وواقع

سيدران : سيدى الرئيس .. أرجو أن تتحدث عن شخصية على عزت بيجوفيتش التاريخية وأعماله .. هل تتذكر مقولتى أن عزت بيجوفيتش سيكون شيئاً إذا نجح البوشناق وبقيت البوسنة، وسيكون شيئاً آخر إذا اختفيا من وجه الأرض !..

عزت بيجوفيتش : لا أحب أن أتحدث عن شخصية على عزت بيجوفيتش وأعماله، ولكنى أحب أن أتحدث عن البوسنة ومستقبلها .. وفى هذا أقول لك باطمئنان (إننى أعتقد أن فكرة البوسنة ستفوز وتبقى .. أو من بذلك لأسباب ثلاثة :

- ١- أن قوة الشعب البشناقى وقوة البوسنة فى غو مطرد .
- ٢- أن صربيا ستبقى فى حالة ضعف واضطراب لفترة طويلة
- ٣- التحول الديمقراطى بكرواتيا يتقدم بخطى ثابتة ومعنى هذا أن الدولتين القويتين المجاوتين الطامعتين فى التوسع بالبوسنة لن يكون لهما أثر فعال ، ومن ثم لن تستطيع صربيا تدمير البوسنة ولن تريد كرواتيا تدميرها ...

بكلام آخر أقول : إن نمو قوتنا الداخلية فى إطار صربيا
ضعيفة وكرواتيا ديمقراطية من الخارج هى رؤيتى وتصورى
التارىخى الذى أراه يتحقق أمامى فى هذه المنطقة .. فى هذا
الوضع التارىخى سوف تبقى البوسنة وسوف تؤكد نفسها
تدريجيا كدولة ديمقراطية موحدة.

سيدران : ماذا عن رؤيتك للبوسنة سنة ٢٠٣٠ م ؟ ..
عزت بيجوفيتش : كيف يتسنى لى معرفة ماذا سيحدث
بعد ثلاثين أو أربعين سنة قادمة ... ولكن البعض يؤكد أن
تغييرات هائلة ستحدث فى العالم .. وأعتقد أن أوروبا
ستكون مقاطعة واحدة وأن الشرق الأقصى سيكون مركز العالم
... وأن أمريكا ستفقد سيطرتها فى العالم بسبب سقوطها
الأخلاقي .. وهذا هو السياق العالمى الذى ستعيش فيه
البوسنة ... ولكنى لا أعتقد أن التأثير القادم من بعيد
سيكون على مستوى التأثير المباشر لجاريها الصربى والكرواتي
.. كما أعتقد جازما أن كرواتيا خلال خمس عشرة سنة ستصنع
من نفسها دولة ديمقراطية حديثة بينما ستبقى صربيا ضعيفة
لزمن طويل ، وفى هذا المناخ ستجد البوسنة فرصتها فى البقاء
والنمو كما سبق أن أشرت .

الإسلام والأصولية

فى محاضرة ألقاها عزت بيجوفيتش أمام الجمعية الألمانية للشئون الخارجية فى بون بتاريخ ١٧ مارس ١٩٩٥م فقرات لفتت نظرى بشدة يقول فيها : (أحب أن ألفت النظر إلى حقيقة وجود قوى فاشية على جانبي البوسنة (فى صربيا من اليمين وفى كرواتيا من اليسار) وهؤلاء جميعا يفخرون بتبني مفاهيم قومية ضيقة (دين واحد وحزب واحد) ... وتهب علينا من الجانبين رياح تريد أن تطفئ هذه الشعلة الصغيرة التى أضأناها فى أرض البوسنة التى تحررت ، والجميع يهاجمون ما يصفونه بأنه (أصولية إسلامية) ، ويزعمون أنهم يقومون بدور الدفاع عن أوروبا من الخطر الإسلامى .. ولعل هذه فرصة مناسبة من حيث المكان والزمان لإلقاء الضوء على ما يسمونه بالأصولية الإسلامية فى البوسنة ... غير أنى أود أولاً أن أنبه إلى حقيقة هامة وهى أنه لا ينبغي لكم أن تسمحوا لهؤلاء الناس بالدفاع عنكم حتى لو كان هذا متعلقاً بالأصولية الإسلامية ... فأنا لا أظن أن أوروبا قد انحطت إلى درجة أن تتوقع من الذين دمروا الأماكن المقدسة والآثار الثقافية

والتاريخية ... أن يقوموا بحماية أوروبا من أى شئ ..
نعم يوجد فى البوسنة إسلام ولكن ليس فيها أصولية ،
فإذا كان هناك من لا يستطيع أن يفرق بين الإسلام والأصولية
فتلك مشكلته الإدراكية ... لقد استيقظ الدين -بعد خمسين
عاما من القمع الشيوعى- فى نفوس الناس ، وهذه العملية
جزء من اليقظة الوطنية للشعب البوشناقى وسوف تستمر ...
ولكن الإحياء الدينى فى البوسنة لن يكون متطرفا راديكاليا
لأنه إحياء طبيعى وحر . وقد أدى دورا إيجابيا فى أنسنة
صراعنا فى سبيل الحرية ، فالدين يؤكد الفرق بين الخير والشر
.. بين ماهو حلال ومباح وما هو حرام .. وكان كل ما حل بنا
من ظلم ودمار يدفعنا للانتقام لا ضابط له ولكننا بحمد الله لم
نتورط فى غواية الانتقام ، بل انتصرنا عليها بفضل
استمسакنا بعقيدتنا الدينية ... فهل هذه أصولية ؟! ..
هذا التضليل الذى يخلط بين الإيمان وبين الأصولية لا يزال
معلقا فى هواء البوسنة بفضل الصمت والقبول المتبادل بين
المعتدى والغرب ، فالمصلحة واحدة وإن اختلفت الأسباب ، أما
مصلحة المعتدى الصربى فهى أن يحول بين الغرب وبين أن يقوم

بواجبه فى مساعدة البوسنة باستخدام خدعة الأصولية الإسلامية ، ومصلحة الغرب هى أنه وجد مبررا لسلبيته ونكوصه عن القيام بواجبه الإنسانى نحو البوسنة المعتدى عليها) .. فى هذا المقام ضرب عزت بيجوفيتش مثالين أجتزئ بواحد منهما له دلالة خاصة قال :

نشب خلاف فى سوق سرايفو حول أماكن بيع لحم الخنزير وضرورة فصلها عن أماكن بيع اللحوم الأخرى (الحلال) ، وطار الخبر إلى الصحافة الغربية فاستشاطت غضبا وأفاضت فى خطورة هذا التوجه من جانب المسلمين وظلت تضخ التحقيقات والتصريحات لعدة أيام وتضخمت قصة الخنازير وأخذت من الاهتمام أكثر بكثير مما أخذته من قبل معسكرات الإبادة الصربية التى اختفى فيها آلاف الناس الأبرياء ولم يبق منهم خلف الأسوار الشائكة سوى هياكل عظمية .. فهل هذا معقول ...!؟

مسلم وأوروبي

فى آخر المحاضرة قال على عزت بيجوفيتش : (اسمحوا لى فى نهاية هذه المحاضرة ببعض ملاحظات شخصية .. لقد جئت هنا بصفة وظيفتى الرسمية كرئيس لجمهورية البوسنة ... ولكن لماذا لا أقولها بصراحة أنتى أيضا جئت كمسلم من البوسنة فأنا أشعر أنتى مسلم قدر شعورى بأننى أوروبى ، ولا أظن أن أحدهما يستبعد الآخر ... وأنا لا أرى وجود اختلافات بين الناس أو بين الحضارات مما لا يمكن معه التواصل والتوافق فإذا كانت كل حضارة هى بصفة أولية مجموعة من القيم .. فى التحليل النهائى قيم أخلاقية يعتنقها أصحاب حضارة ما ، إذن فى مقدورنا أن نتحدث عن إمكانية وحدة الحضارات ... هذه القضية بالنسبة لى هى قضية المساواة الإنسانية .. وفى القرآن آية تقول : ﴿ تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ والدعوة هنا موجهة إلى اليهود والنصارى ولذلك أدعوكم أن تسقطوا دعوى إقامة الحواجز الصناعية (أو العدائية) بين المسيحية والإسلام .. بين الشرق والغرب .. ثم دققوا النظر لكى تروا تلك التعصبات الكامنة وراء الأناية والظلم الغربيين

.. أكثر من هذا سوف تدركون أن كثيرا من الاختلافات التي
ترونها وتستشعرون فداحتها ليست اختلافات جوهرية ، وإنما
هى وليدة اختلافات فى المستوى الثقافى والنمو الاجتماعى ..
إننى مسلم أوروبى وأشعر بارتياح كامل إزاء هذه الحقيقة) .

ما أنا إلا رئيس انتخابه الشعب :

فى مقابلة مع صحفى من مجلة (دانى) الأسبوعية الصادرة فى سراييفو بتاريخ ١١ ديسمبر ١٩٩٤ ، كانت الحرب فى البوسنة على أشدها وقد بدأ كفة قوات المسلمين تُرجح ، إذ استطاعت أن تقتحم معازل الصرب وتحقق انتصارات ملحوظة وتحرر كثيرا من أراضى البوسنة .. هذه الانتصارات لم يكن أحد يتوقعها من المراقبين الدوليين بل بدت وكأنها معجزات .

سأل الصحفى : سيدى الرئيس .. قيادتك العبقريّة للشعب البشناقى لا جدال فيها فلست رئيسا لحزب ولا رئيسا للجمهورية فقط ولكنك أصبحت رمزاً للشعب البشناقى .. ومع ذلك أغامر وأسألك : ماذا بعد على عزت بيجوفيتش ؟ ..

إننى أسألك هذا السؤال وأنا أعلم أن لك محبين كثر كما أنك لك كارهون ، ولكنهم جميعا مجمعون على أنك تمثل أحد العوامل الحاسمة فى الدفاع عن الشعب البشناقى والحفاظ عليه .

عزت بيجوفيتش : أظن أنك تبالغ كثيرا فأنا مجرد رئيس

اختاره الشعب فى انتخاب حر ... وأعرف بالضبط ما يعنيه
هذا الاختيار ومسئوليته .. إننى أشعر من كلامك بالإطراء
ولكن هناك ما يبرر شعورى بالحزن وربما الغضب أيضا .. فأنا
أخالفك فى فكرة أننى على هذا القدر من الأهمية بالنسبة
للدفاع عن الشعب البشناقى .. وأحمد الله أن هذا غير صحيح
.. لقد خرج الناس بالآلاف يقاتلون ويدافعون عن وطنهم ضد
العدوان .. نعم لقد جعلت ذلك عليهم أيسر ، ولكنهم كان فى
استطاعتهم أن يحاربوا بدونى وسوف يستمرون فى القتال من
بعدى .. لقد كنت دائما متأكدا من هذا فى أكتوبر سنة
١٩٩٢ .. وكانت هذه أول مرة ذهبت أطوف فيها بالبوسنة
كلها وكانت الحرب مشتعلة فى كل مكان .. وكنت أكرر هذه
الجمولة من وقت لآخر .. لقد استطاع المقاتلون البشناقى فى
(جراداكاتش) أن يهزموا أعداءهم فى نوفمبر ١٩٩٢
ويحررونها ، فماذا فعلت لهم ؟.. القليل .. أما هم فقد قاموا
وحدهم بالتخطيط والدفاع وانتصروا ... وكذلك بالنسبة
لإعادة بناء صناعتنا العسكرية .. كانت كلها بجهود
ومبادرات عبقرية من قبل مجموعات محلية وبدون كثير من

مساعدة .. كنا نقوم بالتنظيم والتشجيع وقليل جدا من
المساعدات .

بين الحرية والتطرف

تحدث الصحفي عن الاتهامات الموجهة إلى حزب العمل الديمقراطي (أى حزب عزت بيجوفيتش) وكيف أن البريطانيين يدعون إلى تصفيته على أساس أنه حزب قومي متطرف شأنه فى هذا شأن الحزبين الآخرين : حزب الصرب وحزب الكروات ... وكان رد عزت بيجوفيتش موجزا بليغا قال : (لم يكن فى حزب العمل الديمقراطي تطرف ولن يكون مادام ظل الإسلام حرا فى البوسنة ... إما إذا لاحظت حالات فردية من التطرف فهذا أمر عادى يحدث فى كل بلاد الدنيا .

قال الصحفي معقبا : إذن بماذا تفسر زيادة عدد الوهابيين (السلفيين) وأولئك الذين يؤيدون طالبان علناً؟! ..

عزت بيجوفيتش : فهمى للإسلام واضح ومعروف وهو مختلف عن فهم هؤلاء الناس ، فأنا لا أعتقد أن المرأة يجب عليها أن تغطى وجهها بل إننى أعارض هذا .. وقد زرت الحرم المكى فلم أشاهد امرأة تغطى وجهها إلا نادرا ، فلماذا تغطى المرأة وجهها فى سراييفو ؟ ..

... إننى لا أعرف أن فى البوسنة كثيرا من الوهابيين ..

وماداموا لا يستخدمون وسائل غير قانونية فهم أحرار في بلاد
حرّة .

ثم وجه الكلام إليه شخصيا قال : إذا كنت ياسيد
(بتشانين) تقول وتكتب وتعارض كما تشاء ، فلماذا لا يفعلون
هم أيضا بنفس الحرية؟
هذه الآراء تصبح موضع اهتمام السلطات فقط عندما يبدأ
أصحابها يفرضون آراءهم بالقوة واستخدام العنف .

التحول المذهل

فى لقطة واحدة قصيرة يطوى تاريخ البوسنة فى مائة عام
حتى اللحظة الراهنة حيث وقع الانقلاب الأخير .. يقول عزت
بيجوفيتش : (خلال مائة عام تحت أنظمة أوروبية عانينا
بسبب إسلامنا ، وكان التدمير المنظم موجها نحو هويتنا ،
حتى لم يبق منها إلا بقايا وأطلال ، إلا أننا بعد نشوب هذه
الحرب استعدنا هويتنا وعدنا إلى جذورنا الإسلامية الأولى ،
لذلك لم يعد هناك سبب ولا يحق لنا أن ننظر إلى المستقبل
ببأس .. لعل العدوان العاشم الذى وقع علينا كان عقوبة إلهية
لتفريطنا فى جنب الله .. ولكننا جاهدنا جهادا كبيرا
لاستخلاص حريتنا وقد كافأنا الله بالنصر .. إننا اليوم نؤمن
أن الأمم القوية وحدها هى التى تُصاب بمحن كبيرة .. وهى
وحدها التى تعتصم بمبادئ الأخلاق ، والإخلاص لهويتها ،
وتظل مع ذلك مفتوحة على العالم فى أحلك الظروف .. وهذا
ما أتمناه لشعبى وللمسلمين فى هذا العالم .

الإسلام والحضارة الغربية

وفى حديثه عن العلاقة بين الإسلام والحضارة الغربية يقول:
(يواجه المسلمون اختياراً صعباً ينبغي عليهم أن يتجنبوا فيه
اختيار أحد طرفين متعارضين : الرفض التام للحضارة الغربية
أو اتباعها اتباعاً أعمى فكلاهما خطر على نفس المستوى ،
ذلك لأننا إذا لم نتعاون بإيجابية فإن ضعفنا سوف يمتد إلى ما
لا نهاية ، وإذا قبلنا هذه الحضارة بلا تمييز بين ما فيها من خير
وشر فسوف نخسر هويتنا .. نحن لا نستطيع أن ننعزل ونقطع
أنفسنا عن العالم ، ويجب علينا أن نهتدى فى هذا بقول نبينا
الكريم : (الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها) .
كما يجب أن نعى حقيقتين ربما يغيبان عن أذهاننا :
الحقيقة الأولى هى أن هذه الحضارة هى نتاج مشاركة عالمية
لعدد كبير من العلماء ينتمون إلى قوميات وأديان مختلفة ،
والثانية هى أن قوة الغرب ليست فى اقتصاده وقوته العسكرية
فحسب ، فهذا هو الجانب الخارجى منها ، ولكن القوة الحقيقية
للغرب تكمن فى النقد الفكرى ، وهذا ما ينبغى أن نفهمه وأن
نمارسه فى حياتنا .

ويحذر عزت بيجوفيتش مما سماه بالتقليد الطفولي للمظهر
الخارجي للحضارة الغربية لأن هذا المظهر يحمل فى طياته
بطانة ثقافية غير مشهودة ، ولكنها مزوجة بكمالية عميقة
واحتقار شديد للإسلام والمسلمين موروث من زمن الحروب
الصليبية .. وهذا ما يفسر لنا كيف أن أبناءنا عندما يحتكون
بهذه الحضارة وينبهرون بها يشعرون بعقدة النقص تجاهها ،
ويتشربون روح العداة للإسلام وقيمه وتاريخه ومن ثم ينشأ
عندنا ذلك الصراع الأذى بين دعاة الهدأة والتبعية للغرب
وبين المحافظين المتصلبين على التقاليد .. وقد مزق هذا
الصراع كثيرا من المجتمعات المسلمة وأدى إلى نتائج كارثية .

فكرتان جديدتان فى أوروبا

يلفت عزت بيجوفيتش أنظارنا إلى فكرتين كبيرتين تترددان فى الثقافة الأوروبية المعاصرة ويدعونا إلى أن نتأمل فيهما بعناية شديدة ، تتعلق الفكرة الأولى بما يسمى (المجتمع المفتوح) كما تحدث عنه كارل بوبر فى كتاب له بهذا العنوان وجعل من أهم أركانه : حرية الفرد وحرية الفكر والنمو الشخصى ، وحق الإنسان فى نقد المؤسسات السياسية والتبادل الحر للأفكار ، يقول عزت بيجوفيتش : (لست أجد فى مبادئ الإسلام وقيمه ما يحول بين المسلمين وبين الاشتراك فى تنمية المجتمع المفتوح بهذا المعنى ، على الأخص أن آراء بوبر تحث على التسامح وعلى محاربة التوجهات البربرية فى أوروبا والتي طالما وُجّهت ضد المسلمين فى هذه القارة .

أما الفكرة الثانية فيُطلق عليها اسم (النهضة الأوروبية الثانية) كما يدعو إليها الفيلسوف الألماني (وايتساكر) weizsacker وتختلف هذه الفكرة عن النهضة الأوروبية الأولى التي حصرت مصادرها فى الحضارتين الأوربيتين

اليونانية والرومانية فى أنها تتوجه إلى عوالم وثقافات خارج أوروبا ، هذا التحول الجديد نحو الخارج يجعل للفكر الإسلامى موضعاً محتملاً فى إطار الاهتمام الأوروبى ، ولذلك فنحن مدعوون للقيام بجهد إيجابى مخلص فى تقديم الإسلام وتقريبه من الاهتمام والمزاج الأوربيين ، وفى هذا المجال يسوق عزت بيجوفيتش الآية القرآنية :

﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَاجًا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝﴾
ويعلق على هذه الآية بقوله : (نحن لا نستطيع أن نستيق الخيرات إلا عندما نقوى هويتنا ويزداد وعينا بها ... فالمسلمون الواعون وحدهم هم القادرون على الأخذ والعطاء (والحوار) دون أن يلقوا بقيمهم الإسلامية وراء ظهورهم .

مسلم وأوربي

فى لقاء صحفى مع مندوب صحيفة (شتيرن) الألمانية بتاريخ ٥ نوفمبر ١٩٩٤م سأله قائلا : السيد الرئيس أنت معروف كمسلم حريص على التقاليد الأوروبية والتسامح الأوروبي وأنتك منفتح على العالم بأسره ، ولكن هناك تقارير صحفية تزعم أن هناك أسلمة جارية فى البوسنة والهرسك فهل هذه مجرد شائعات ؟ ..

أنظر إلى إجابة الرجل الذى يفهم العقلية الأوروبية وكيف يخاطبها لا بلغة الاعتذار والتبرير المهين وإنما بمنطق المواجهة الحكيمة قال :

(سوف أكون شديد الصراحة وأقول لك : لا ليست هذه شائعات بل حقيقة - وتفسيرها أن العودة إلى الدين أصبحت ظاهرة عالمية فى كل مكان قمع فيه الشيوعيون الدين على مدى خمسين إلى سبعين سنة .. نعم هناك أسلمة فى البوسنة -على حد وصفك- وهى صحوة إسلامية ، بقدر ما فيها صحوة أرثوذكسية وكاثوليكية ، ولكن الفرق هو أن عودة المسيحيين إلى دينهم لم تلفت انتباه أوروبا المسيحية وهو أمر أفهمه ولا

ألومها عليه ، أما عودة المسلمين إلى دينهم فقد اعتبرته أمرا
مفزعاً .. أود فقط أن أصح لك في نقطة واحدة وهي أن
تسامحى ليس مرده إلى أنتى أوروبى ، وإنما مصدره الأصلى
هو الإسلام ، فإذا كنت متسامحا حقاً فذلك لأننى أولاً وقبل
كل شئ مسلم ثم بعد ذلك لأننى أوروبى ... لقد لاحظت خلال
حرب البوسنة أن أوروبا تسيطر عليها ضلالات وأوهام لا
تستطيع التحرر منها رغم الحقائق الدامغة ، فقد دُمرت في
هذه الحرب مئات المساجد والكنائس ... كلها -بلا استثناء-
دمرها مسيحيون ، ولا توجد حالة واحدة لكنيسة دمرها
البشناق (المسلمون) .. أسوق إليك حقيقة تاريخية أخرى :
فقد حكم الأتراك العثمانيون البلقان خمسمائة سنة فلم يهدموا
كنيسة ولم يبيدوا شعباً ، بل حافظوا على الأديرة الشهيرة في
جبال فروشكا جورا (قريباً من بلغراد) لأن إسلامهم يأمرهم
بهذا ، ولكن هذه الآثار الدينية التاريخية لم تصمد ثلاثة
أعوام فقط تحت الحكم الأوروبى .. فقد دمرها الشيوعيون
والفاشيون خلال الحرب العالمية الثانية ، وهؤلاء لم يكونوا
نتاجاً آسيوياً بل صناعة أوروبية ... وحتى هذه اللحظة لم
تظهر أوروبا حساسية ضد الفاشية المتصاعدة في البلقان

ووقفت تتفرج على الخراب الذى أحدثه الصرب فى البوسنة ...
إننى أعتز بأوروبا وأكن لها كل تقدير ولكن أوروبا تحمل عن
نفسها فكرة أعلى بكثير من حقيقتها ! .
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

الفهرس

٥	• سيرته الذاتية :
٧	مقدمة
١١	رأى على عزت فى مذكراته
١٣	الدراسة والحرب فى يوغوسلافيا الملكية
١٧	نسمات من السعادة فى سراييفو
٢٠	الهيمنة الصربية
٢٢	التشكيل المبكر لوجدان على عزت
٢٥	المراهقة وغواية الفكر الشيوعى
٢٧	• العمل الإسلامى وتجربة السجن :
٣١	ملاحق أخرى لدعوة الشبان المسلمين
٣٣	بداية الصدام مع النظام الشيوعى
٣٦	تجربة السجن الأولى
٣٨	رب ضارة نافعة
٤٠	الزواج ومعاودة النشاط
٤٢	سراييفو تحت النظام الشيوعى
٤٥	انطلاق العنصرية الصربية بعد موت تيتو
٤٧	سجناء الرأى ومحتهم الثانية

● محاكمة سراييفو وتجربة السجن الثانية: ٤٩

٥٣	الانتهاك بالتآمر لقلب نظام الحكم
٥٥	عبثية المحاكمة
٥٨	شهادة حجة باشا
٦٠	دفاع على عزت
٦٢	الحياة فى السجن
٦٦	تأملات سجين
٦٩	الكلام كجرمة
٧١	الانتقام غير وارد

● من السجن إلى قيادة الشعب: ٧٣

٧٩	إنشاء حزب العمل الديمقراطى
٨٤	استقبال الجماهير للقيادة الجديدة
٨٦	التسامح الإسلامى فى فوتشا
٨٨	دولة مدنية
٨٩	مؤامرة من داخل الحزب
٩١	شخصيات فى حياة على عزت

٩٢ فرانيو توجمان
٩٤ فكرت عبدتيش
٩٦ على طريق المصالحة إلى أقصى المدى
٩٧ فى جحر الثعابين

١٠١	• نماذج من البشر:
١٠٥ عن سلوبودان ميلوسيفيتش يقول
١٠٧ فرانيو توجمان
١٠٩ القيدالية عند توجمان
١١٤ نماذج متحيزة من بريطانيا
١١٨ المثقفون المحايدون
١٢١ السياسيون ومكانهم
١٢٣ سلام ظالم

١٢٥	• لقاءاته الصحفية وتصريحاته:
١٣٠ تجربته مع الأجنبي
١٣١ مع عبد الله سيدران

١٣٣	قراءاته
١٣٤	البشناق والبوسنة
١٣٦	مستقبل البوسنة رؤية وواقع
١٣٨	الإسلام والأصولية
١٤١	مسلم وأوروبي
١٤٣	ما أنا إلا رئيس انتخاب الشعب
١٤٦	بين الحرية والتطرف
١٤٨	التحول المذهل
١٤٩	الإسلام والحضارة الغربية
١٥١	فكرتان جديدتان في أوروبا
١٥٣	مسلم وأوروبي

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٤ / ١٥٣١٤